الأسلوب والخطابة

عند العرب والإفرنج

محمد لطفي جمعة

مراجعة

رابح لطفي جمعة

اهداءات ٢٠٠١

المستشار/ رابح لطفى جمعة

القاهرة

الأسلوب والخطابة

عند العرب والإفرنج

محمد لطفي جمعة

مراجعة
رابح لطفي جمعة

عالم الكتب
سنة ١٩٩٩

رقـم الإيـداع
٩٩ / ١٠١٨٣
الترقيم الـدولي .I.S.B.N
977 - 232 - 188 - 2

تقديـــم

د. إبراهيم عوض
آداب عين شمس

الدكتور محمد لطفي جمعة (١٨٨٦ - ١٩٥٣م) هو أحد كتاب جيل العمالقة . وقد ترك رحمه الله كثيراً من الكتب والدراسات فى مجال الآداب والنقد والفكر الإسلامي والإصلاح الاجتماعي ، وكان رائداً فى بعض ما خلفه لنا من بحوث .

وفي الصفحات التالية نقدم للقراء الكرام كتابه عن « الأسلوب والخطابة عند العرب والإفرنج قديماً وحديثاً » ، وهو فضل أولانيه الصديق العزيز الأستاذ رابح جمعة القائم على نشر تراث والده الكريم ، لا يألو في ذلك جهداً ولا مالاً ولا يبغى من ورائه كسباً[1]. وأحسب أن ما كتبه د. جمعة عن الأسلوب والخطابة هو من البحوث المبكرة القليلة فى هذا المجال .

ويبدأ د. محمد لطفي جمعة كتابه بتعريف الأسلوب بأنه «الصورة الظاهرة لعقل الكاتب وروحه وفكره ومرماه » ، ويشير إلى ضرورة تطابق الألفاظ مع ما تعبر عنه من المعانى من حيث الرقة

---

(١) يحكى الأستاذ رابح أن الرئيس الراحل محمد أنور السادات ، رحمه الله ، عرض على أخيه المرحوم زكريا لطفي جمعه ، وكان عضواً بمجلس الشعب آنذاك ، أن يوافيه بكتب والده لتطبع على نفقة الدولة ، لكنه للأسف ترك هذه الفرصة تضيع.

والجزالة وغيرها ، ولكنه يؤكد فى ذات الوقت أن فى الأسلوب عنصراً لا يمكن تعريفه، وهو السياق الفنى الذى ينشأ (كما يقول) عن « الانسجام ومراعاة الإشباع مع عدم التكلف ٠٠٠ إلخ » ، وهذا العنصر لا يتهيأ إلا للعباقرة فى الأدب ٠ ولكن هناك بعض الاضطراب في كلامه عندما يقرر أن « لكل كاتب أو شاعر أسلوباً يميزه عن سواه ، ولكل أسلوب مذاقاً عند القارىء الفطن » ثم يقول فى ذات الوقت إن الحريرى صاحب المقامات هو « كاتب بغير أسلوب ذاتى » ٠ لقد كان المفروض أن يعدّل أحد القولين بحيث لا يتعارض مع الآخر، كأن يقول مثلاً « إن لكل كاتب أصيل أسلوباً يميزه عن غيره من الكتاب الأصلاء » ، أو « إن الحريرى صاحب أسلوب ذاتى ، وإن كنا لا نعجب به كثيراً لما فيه من تكلف مثلاً »٠٠٠ وهكذا ٠

ومما لفت نظرى فى كلامه عن بعض أصحاب الأساليب فى الأدب العربى قوله عن الجاحظ إنه « لم يُدْرَس فى بلاده العربية الدرس الكافى لفهمه وتقديره » ٠ وهذا الكلام قد يصدق على الفترة التى كتب فيها جمعة رحمه الله ما كتب (سنة ١٩٤٤)٠ أما الآن فقد تغيرت الحال ، إذ حُقِّقت أعمال الجاحظ تحقيقا علمياً وظهر عنه عدد من الدراسات المتنوعة تناولته أديباً ، وتناولته ناقداً ، وتناولته مفكراً معتزلياً، وتناولته مفسّراً، وتناولته صاحب أسلوب ٠

ولعل من المفيد الإشارة إلى أن لكاتب هذه السطور دراسة لإحدى رسائل الجاحظ فى حقل المجادلات الدينية ومقارنة الأديان وهى « رسالة الرد على النصارى » ، ونرجو أن تظهر قريباً ، ولعلها تكون بين يدى القراء وهم يطالعون هذه المقدمة (١).

ومما يحمد للدكتور لطفى جمعة ويذكر له بالفضل محاولته استخلاص السمات العامة لأساليب بعض الكتّاب العرب والغربيين، وهى محاولة تشهد له بسعة الاطلاع وحسن التذوق ورهافة الحسّ النقدى . ومن الواضح أنه على معرفة بكثير من التفاصيل والمواقف الدقيقة والحاسمة فى حياة كبار الكتاب والأدباء من عرب وغربيين وقدماء ومحدثين ، وذو مقدرة على توظيفها فى الوصول إلى حقيقة أدبهم وفكرهم .

وهو يعشق فى الأسلوب السهولة والدقة والوضوح ومتانة الصياغة عشقاً كبيرا ، فنراه كثير الإشارة إلى هذه الخصائص دائم الإلحاح على أهميتها ، كما يكره الوعورة والتكلف والحذلقة والغموض والاستتار خلف الرواسم (الكليشهات) . ومن هنا رأيناه يفضّل ابن خلدون على الحريرى ، وأشعار المتنبى وابن الرومى على أشعار الفرزدق وجرير ، وقراءة أفلاطون وشوبنهاور

---

(١) ظهرت هذه الرسالة فعلاً تحت عنوان / من تراثنا الإسلامى فى مقارنة الأديان مع الجاحظ فى رسالة « الرد على النصارى » مكتبة زهراء الشرق / القاهرة / ١٩٩٩م.

على قراءة أرسطو وهيجل وشلنج ··· وهلم جرا· على أنه قد وقع، وهو يتكلم عن أبى تمام ، فى سهو تاريخى وأدبى ، إذ ظن أن هذا الشاعر هو صاحب القصيدة التى تصف مصرع أحد الخلفاء العباسيين (وهو المتوكل) على يد ابنه وولى عهده · والحقيقة أن ذلك الشاعر هو البحترى ، الذى نكره جمعة عقب ذلك وأشار إلى قصيدته فى وصف إيوان كسرى ، تلك القصيدة التى هى فى الحقيقة بمثابة امتداد للقصيدة السالفة التى رحل بعدها عن بغداد وتوجه إلى الشرق حيث وقف فى طريقه بذلك الإيوان يتسلّى بمشاهدة معالم جماله عما أصابه من حزن ممضّ بسبب تلك الحادثة البشعة ·

والأسلوب الممتاز عند د· لطفى جمعة يكسب القارئ إلى صف صاحبه ، وهذا رأى سليم مائة فى المائة ، فما أكثر ما ينفر القارئ من قراءة موضوع مهم لا لشيء إلا لضعف الأسلوب وركاكته أو عدم قدرة الكاتب على الإبانة عما يريد توصيله من أفكار ومشاعر ·

كذلك ينصح كاتبنا المؤلفين بأن عليهم ألا يكثروا من إيراد التفاصيل الكثيرة التى من شأنها أن تكظّ عقل القارئ فلا يستطيع من ثم هضم مايقرأ ، بل ينبغى ترك شيء لذهنه يسدّ به الفراغات الموجودة فى العمل ·

وللإلهام عند جمعة دور مُهمّ فى العملية الكتابية ، وهو عبارة

عن الألفاظ والعبارات والمعانى والخواطر المختزنة فى الذاكرة من أثر القراءات القديمة والجديدة . وقد يصل الإلهام إلى الحد الذى يبدو معه الكاتب وكأن شخصاً يملى عليه ما يكتبه ، بل وكأنه نافورة ترسل بالماء الملوّن فى تصاوير هندسية دقيقة وجميلة . ومع ذلك فسوف نراه بعد قليل يقول إنه لا شىء يأتى عفواً بل لابد من أن يجهد الكاتب ذهنه إجهاداً لاستخراج ما فيه من درر ولآلىء كامنة . اللهم إلا إذا قيل إن كلامه هنا إنما ينصب على مرحلة التحصيل ، وهى فترة مرهقة تعقبها مرحلة الحصاد والإنتاج التى وصفها آنفا . لكن كلامه فى هذه النقطة ينقصه الوضوح الكافى للأسف . وعلى أية حال فسيعود مرة أخرى إلى هذه المسألة عند حديثه عن مقدمة ابن خلدون التى ينقل نقل المحبّذ ما كتبه ساطع الحصرى من أنه عندما يتأمل ما كتبه ابن خلدون فيها يجزم بأن « توصله إلى مجموعة الآراء المبتكرة الكثيرة المسطورة فيها إنما حدث من جراء تدفق فجائى بعد حدس باطنى واختمار لاشعورى» .

وبالمناسبة فقد صدر منذ وقت غير بعيد بحث لأستاذ جامعى مصرى ينكر فيه على ابن خلدون أصالة ما كتبه فى هذه المقدمة ويزعم أنه سطا على أفكار إخوان الصفا . وقد ردّ على هذا الباحث عدد من الكتاب المصريين والعرب يفنّدون ما قاله ويتهمونه بالتسرع والتجنى وعدم الضبط . والمسألة محتاجة إلى مزيد من

البحث والتدقيق.

وقد عقد د. جمعة مقارنة سريعة بين ما قاله ابن خلدون عما تتركه العوائد التى تربّى عليها الإنسان فى سلوكه وما قال فى ذات الموضوع الفيلسوفُ الإغريقى أفلاطون ، ومع ذلك فقد قرر أن المفكر المسلم قد وصل إلى فكرته مستقلا عن أفلاطون لأن كتابه «الجمهورية » لم يكن قد نُقل إلى العربية آنذاك ، ومن ثم فلم يكن بمستطاع ابن خلدون الاطلاع عليه .

وجمعة يرى أن الأسلوب المتميز ليس وقفاً على الكتاب الأفراد بل لكل عصر أسلوبه المتفرد الذى يخالف أساليب العصور الأخرى . وخصائص هذا الأسلوب هى : بطبيعة الحال ، خصائص عامة، إذ تشمل كل الأساليب الفردية لكتّاب ذلك العصر.

ثم ننتقل إلى الشق الثانى من الكتاب ، وهو الشق الذى يتناول موضوع الخطابة . وبادىء ذى بدء لابد أن نذْكُر ونذكِّر بأن د. لطفى جمعة كان خطيباً مرموقاً . وقد أشار إلى ذلك معاصروه كالدكتور زكى مبارك ، رحمه الله ، الذى اشتبك معه فى مناظرة بكلية الآداب (جامعة القاهرة) فى الأربعينات وأقر له بالفضل رغم أن حكم الجمهور فى نهايتها كان فى صالحه هو ، وقال إنه قد تعلم منه الكثير .

وقد وصلتنا بعض خطب د. جمعة كخطبته أمام الملك

عبدالعزيز آل سعود أثناء تأديته الحج عام ١٩٤٠م ، وخطبته بدار الصبّان فى مكة المكرمة آنذاك أيضا [١] . ولكن السؤال هو كيف وصلتنا هذه الخطب إذا كان هو قد ارتجلها كما تقضى أصول الخطابة ؟ ونفس السؤال قد سبق أن طرحتُه فى الفصل الخاص بـ «أمالى القالى » من كتابى « من ذخائر المكتبة العربية » ، إذ تساءلت عن الكيفية التى وصل بها إلينا ما أملاه أبو على القالى من محاضرات فى جامع مدينة الزهراء بقرطبة بحيث يصح أن نقول إن هذه الأمالى تنتسب إليه أسلوباً كما تنتسب إليه فكراً ومضموناً .

على أية حال سوف نرى جمعة يذكر بعد قليل أن الخطيب المطبوع كثيراً ما ينوى أن يتلو ما أعده كتابة فلا يلبث أن يرى الجمهور وقد استعد لسماعه والاتصال به اتصالاً مباشراً حتى ينسى ما أعدّه أو يتناساه وينطلق فى ارتجاله فيتفوق على نفسه ويزدرى ما كان قد أعدّه كتابة . لكن السؤال الذى طرحناه آنفاً مازال كما هو ينتظر الجواب[٢]. ومع هذا فإن مرافعاته فى

---

(١) انظر كتاب لطفى جمعة / الأيام المبرورة فى البقاع المقدسة - رحلة الحج والزيارة على عهد الملك عبد العزيز آل سعود / مكتبة عالم الكتب / القاهرة / ١٩٩٩م، ص ٩٩ - ١٠١ ، ١٠٥ - ١١٢ ، ١٥٦ - ١٦٠ .

(٢) انظر الجواب على هذا السؤال فيما يلى فى كلمة الأستاذ رابح لطفى عن هذا الكتاب .

القضايا السياسية الهامة لم تسجل ، ومنها القضية الخاصة بمقتل أمين عثمان التى كان من بين المتهمين فيها الرئيس الراحل محمد أنور السادات .

وما كتبه لطفى جمعة فى هذا القسم (الخطابة) ينبئ عن إدراك عميق لأهمية الإلقاء الخطابى وتفوقه فى التأثير النفسى على النص المكتوب ، لأن حضور الخطيب واتصاله بالمستمع اتصالاً مباشرا شىء آخر غير ذلك الاتصال غير المباشر الذى يكون بين القارئ والكاتب . وقد ضرب جمعة أمثلة على هذا السحر بخُطب بارنل الأيرلندى وجلادستون الإنجليزى وهتلر الألمانى وموسولينى الإيطالى . ونحن نعرف كيف أشعل هتلر وموسولينى عواطف الناس فى بلديهما وأثارا النعرة الوطنية عندهما لدرجة أن كلا منهما قد استطاع أن يقود شعبه من أنفه وأورده موارد التهلكة .

كذلك أشار د . جمعة إلى ما فعله شكسبير فى مسرحيته يوليوس قيصر عندما أثبت خطبة مارك أنطونى التى حوّل بها تيار الرأى العام الرومانى من مشايعة قتلة قيصر إلى معاداتهم ومطاردتهم ونفيهم من البلاد .

ويعيّن جمعة أهم المجالات التى ترعرع فيها فن الخطابة عند الغربيين وهى السياسة والمحاماة والتأليف التمثيلى ، أما عند العرب فهناك إلى جانب هذا الخطابةُ الدينية بعد الإسلام والمناسبات الاجتماعية فى الجاهلية أيام أن كانت الخطابة ،

بسبب غلبة الأمية ، تأتى قبل الكتابة .

ويُعْلِى كاتبنا رحمه الله من شأن الموهبة فى الخطابة ، موضحاً أن لكل خطيب طريقته المتميزة فى الأداء ، وأنه إذا كان البلاغيون قد وضعوا القواعد التى تحكم هذا الفن فإن الخطيب العبقرى (كما يقول) لايخضع لشىء منها ، وإنما يخضع لها خطباء الدرجة الثانية الذين لا قيمة لهم تُذْكَر . ومع هذا فقد أشار جمعة إلى بعض الصفات التى لا بدّ منها للخطيب كى ينجح فى مهمته . وهى جهارة الصوت وحلاوة النغمة وجودة القريحة وطلاقة اللسان ورباطة الجأش وسكون الجوارح وحسن الأداء بالإشارة المعتدلة والمقدرة على تخيّر الألفاظ والتراكيب وتنسيق الأدلة وترتيب المقدمات والنتائج ومخاطبة الناس على قدر عقولهم ومكانتهم وعدم التدقيق الشديد فى المعانى أو التنقيح المبالغ فيه للألفاظ وألا يوجز فى المواضع التى تحتاج إلى إطناب أو يطنب حين تكون الحاجة داعية إلى الإيجاز ...إلخ.

وقد وقف د. لطفى جمعة طويلاً عند عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية فقصّ تاريخ حياته والوظائف التى تقلب فيها والأنشطة التى مارسها والمواهب التى كان يتمتع بها ، وكيف برز من بين صفوف الشعب حتى وصل إلى القمة . وعندما تحدث عن موهبته الخطابية لم يتردد فى مقارنته بديموستين أحد مشاهير الخطباء الإغريق ، كما تتبعه وهو يلقى خطبه الحماسية التى كان

يرفع بها من روح الشعب المعنوية فى المناسبات المختلفة ويشخّص الأدواء التى تعانى منها الأمة حاملاً أثناء ذلك على قوى الشر والاستبداد وأطماع الطامعين الأوربيين .

وفى رأى جمعة أن النديم كان هو الواسطة التى انتقلت بها أفكار الأفغانى الثورية العالية إلى جماهير الشعب البسيطة التى لم يكن لها من سبيل إلى الاتصال بجمال الدين والتأثر بفكره ، كما أبرز اللغة البسيطة التى اعتمدها النديم فى مخاطبة هذه الجماهير وخلوّها من الألفاظ الفخمة والصور المجازية المعقدة.

كذلك ذكر المؤلف فى شىء من السرعة بعض خطباء العرب والفرنجة قديماً وحديثاً مثل ديموستين (سيد خطباء اليونان) ومعاصره ومنافسه آيشين وكذلك توسيد يد وبركليس وكسرى وأردشير وداريوس وعلى بن أبى طالب وإبراهيم بن جبلة وبشر بن المعتمر وواصل بن عطاء وخالد بن الوليد وطارق بن زياد وبعض خطباء الثورة الفرنسية مثل مارا (الذى يكتبه « مارات») وروبسبيير (الذى ينطقه بالزاى بدل السين) ونابليون وفكتور هيجو وجمال الدين الأفغانى ومصطفى كامل ، ودزرائيلى وجلادستون (وقد تولى كلاهما رئاسة الوزارة للملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا) وتشرشل (ويكتبه أحيانا شرشيل) وكليمنصو ... إلخ.

بيد أنه قد فصّل القول عند حديثه عن الخطيب الإغريقى

تمستوكل مثلما صنع مع عبد الله النديم فأمتعنا بعرض وقائع حياته والخصومات السياسية التى خاضها والصراعات الحربية التى غمرته أمواجها المهولة والمواهب الخطابية التى حباه الله بها وغير ذلك مما يشدّ القارئ بل يسحره ويبهره كما سحرته وبهرته الصفحات التى سطرها عن الخطيب المصرى عبد الله النديم ، وكذلك فعل مع عدد آخر من خطباء الإغريق سوف يلتقى بهم القارئ فى الصفحات التالية .

ويأبى جمعة أن يفلت الفرصة دون أن يشير إلى عيب خطير فينا ، إذ يقول إن الإغريق رغم كل شيء قد « مكنوا عظماءهم من العمل وأبقوا الانتقام (من المخطىء منهم) إلى مابعد النصر ، ولكن الشرق نشط حاذق ، فهو يقتل الفرخ فى البيضة ، وإن لم يتمكن فعند خروجه من البيضة ، وإن لم يتمكن فإذا بدأ الصياح ... وهكذا إلى أن يصحبوه إلى قبره ومقره الأخير فينشرون مناديلهم أعلام الحزن ويبكون دماً على الراحل الكريم والفقيد العظيم ! هذا ما فعلوه فى عهدنا أثناء حياة محمد عبده ومصطفى كامل وقاسم أمين ومازالوا يفعلون ، وهذه جبلّة وفطرة وطبيعة لايمكن تحويلهم عنها ، وهذا داء دفين وعلة مزمنة كاللعنات التى ابتلاهم الله بها . فإن برئوا من القمل ومن الطاعون والحمّى والبعوض وبقية اللعنات فلعلهم يبرأون من الحسد والغيرة ومقاومة المواهب . وهيهات ثم هيهات ثم هيهات ! » .

وهى صرخة ألم لا أظن جمعة إلا يقصد بها نفسه أيضاً مع من ذكرهم . ويستطيع الأستاذ رابح ابنه أن يفيض فى الحديث عن هذه النقطة . وقد أخبرنى ، عندما سألته عن السر فى أن الوالد لم يفكر فى نشر كل تلك المخطوطات التى يعمل هو جاهداً على نشرها بعد كل هذه السنين الطوال منذ وفاة والده فى سنة ١٩٥٣(١) ، أن الوالد قد يئس من الناشرين الذين كانوا يأكلون حقه ، فنفض يده فى أخريات حياته من النشر وعكف على الكتابة للذة الكتابة فى حد ذاتها دون التفكير فى إخراج ما يكتب إلى النور . وهذا أمر عجيب ، وبخاصة أن جمعة رحمه الله كان من المحامين الكبار ، فلم لَمْ يفكر فى مقاضاتهم وإجبارهم بالقانون على أن يعطوه حقه ؟ لكننا ننظر حولنا الآن فنجد واحداً كالمستشار سعيد العشماوى يشكو نفس الشكوى على صفحات الجرائد والمجلات رغم كونه أيضاً رجل قانون وكاتباً شهيراً ! ترى أهى لعنة تطارد المفكرين والأدباء ؟ أم ماذا ؟

وبالمناسبة أحب أن أنبه الشباب من القراء إلى أن جمعة كان فى عصره من النقاد ذوى الشأن . ويكفى أن نذكر كتابه

---

(١) انظر فى نهاية الكتاب بياناً بالمؤلفات التى تم نشرها بعد وفاة المؤلف.

«الشهاب الراصد » الذى ردّ به على آراء د. طه حسين المتسرعة الفطيرة فى الإسلام والشعر الجاهلى ، وهو من أعمق وأقوى البحوث والدراسات التى زلزلت النظرية السخيفة التى استقاها الدكتور طه من مرجليوث ثم وشّاها ببعض التزاويق من عنده كما بيّنْتُ فى كتابى « معركة الشعر الجاهلى بين الرافعى وطه حسين» وبيّنه غيرى من الدارسين .

ومما يحسن التريّث عنده أيضاً من كلام جمعة فى كتابه الحالى قوله إن من بين الأوهام الشائعة عند العرب أن اللغة العربية هى أبلغ اللغات ، فلا توجد لغة أرقى منها ولا أبلغ ولا أفصح . وهو يسارع إلى القول بأنه يوافق على هذا لأنها لغة القرآن والحديث ، ولكن ذلك لا يمنع أن تكون فى اللغات الأخرى بلاغة وفصاحة لا تقل عن بلاغة العربية ، فالبلاغة ليست مقصورة على أمة دون أمة أو عصر دون عصر أو لسان دون لسان أو على الملوك دون الطبقات الدنيا من الشعب أو على المتحضرين دون البدو كما يقول .

فأما أن البلاغة موجودة عند كل الأقوام وفى كل الألسنة فهو مما لا نستطيع أن نشاحّ فيه ، لكنى كنت أود لو أنه أزال ما يبدو لى تناقضا حينما أمّن على القول بتفوّق العربية من هذا الجانب على سائر اللغات ثم سارع إلى التعقيب بأن اللغات الأخرى لاتقل عن لغتنا فصاحة وبلاغة . أيا ما يكن الأمر فهذه المسألة

هى من المسائل الخلافية التى لايمكن حسمها ، فكل أمه تباهى بلغتها ، وقد ترى أنها أفضل لغات البشر طراً ، بل قد يَشْرَكها فى هذا الإحساس بعض من يستعملون لغتها دون أن تكون لغة الجنس الذى ينتمون إليه مثلما كان بعض علماء العربية القدماء ممن أصلهم فارسى أو يونانى يفتخرون بلغة الضاد ولا يرون لها نظيراً .

وقد رجع د. جمعة ، عند تأليفه كتابه هذا ، إلى عدد من المصادر والمراجع بالعربية والإنجليزية والفرنسية ، ولكنْ جرياً على عادته الغالبة يكتب أسماء الكتب الأجنبية (فى قائمة المراجع فى ذيل الكتاب) باللغة العربية ، وكان الأفضل أن تُكْتَب عناوينها بلغتها الأصلية مادام رحمه الله قد قرأها فى تلك اللغة .

كذلك يلاحظ أن الكتاب ليس محكم التصميم تماماً ولا هو قائم دائماً على الاستطراد وتسجيل الخواطر التى كانت تلتمع فى ذهن المؤلف أثناء تأليفه ، وإنما هو مزيج من هذا وذاك ، ففيه شىء من طريقة المؤلفين العرب الأوائل كالجاحظ وأشياء من الطريقة الحديثة فى تأليف الكتب والرسائل العلمية . ولست أقصد الغض من شأن الإشراقات الفكرية التى كانت تلتمع فى عقل المؤلف فيقوم باقتناصها وتقييدها أولاً بأول ، فهى لوامع مفيدة وممتعة ، بل كل ما أردته هو التنبيه على طريقته فى التأليف .

وفي الختام أذكر أنه ، رحمه الله ، قد استعمل كلمة «باحت» بمعنى « بحث » . وقد دارت بيني وبين الأستاذ رابح مناقشة حول صحة هذه الكلمة اقتضتني النظر في بعض المعاجم فلم أجدها . وها أنذا أسجل هذه النقطة هنا من باب الأمانة العلمية، ومن يدرى فلعل أحد الباحثين يعثر على تلك الصيغة فى معجم من المعاجم التى لم أبحث فيها .

د. إبراهيم عوض

القاهرة فى ١٥/٦/١٩٩٩ آداب عين شمس

هذا الكتاب

رابح لطفى جمعه

عرف العرب ثلاثة أنواع من الكلام هى المحادثة والمخاطبة والكتابة ، فالمحادثة أو لغة التخاطب هى الحديث الذى يدور بين الناس فى مختلف شئون الحياة ، والخطابة هى الكلام الفصيح الذى يلقى على جماعة فى أمر ذى بال ، أما الكتابة فهى كلام مكتوب لا يتلفظ به وإنما يقصد به أن يحفظ للخَلَف .

وكتاب « الأسلوب والخطابة عند العرب والإفرنج قديماً وحديثاً » لمؤلفه محمد لطفى جمعه هو من الكتب الرائدة فى بابه ، فلا أكاد أعرف كتاباً جمع بين هذين الموضوعين معاً ، وإن كان هناك بعض الكتابات عن الخطابة كفن من فنون الأدب قائم بذاته ووسيلة من وسائل الاتصال والتأثير فى الجماهير وتوجيهها .

أما الكتابة عن الأسلوب فلم تكن تعرف قبل الدراسات الأوربية الحديثة عن الأسلوب ، وإن كان الحديث عنه يعرض عادة بمناسبة الحديث عن البلاغة ، حيث أن دراسة الأسلوب كانت مرتبطة بالبلاغة التقليدية ، ولم تتغير هذه النظرة إلا على يد جورج بوفون (١٧١٧ - ١٧٨٨م) الذى حاول ربط القيم الجمالية فى الأسلوب بخلايا التفكير الحيّة والمتغيرة من شخص إلى آخر . ولا ننسى هنا محاولات عبد القاهر الجرجانى فى كتابيه « أسرار

البلاغة » و«دلائل الإعجاز » فى تحليل الأسلوب أو النص الأدبى على أساس من فهمه « للنظم » الذى يقترب كثيراً من مفهوم الأسلوب بالمعنى الحديث .

وفى تقديمه للكتاب عرض الأستاذ الفاضل الدكتور إبراهيم عوض للعديد من الموضوعات والقضايا التى تناولها المؤلف فى حديثه عن الأسلوب والخطابة وناقش بعض هذه القضايا واقتضته الأمانة العلمية أن يصرح بما لاحظه على الكتاب مما يحسب للمؤلف أو عليه .

وقد تساءل عن كيفية وصول خطب لطفى جمعه أمام الملك عبدالعزيز آل سعود أثناء تأديته الحج عام ١٩٤١ وخطبته فى دار الصبّان فى مكة المكرمة آنذاك أيضاً والتى تضمنها كتابه « الأيام المبرورة فى البقاع المقدسة » إذا كان هو قد ارتجلها كما تقضى أصول الخطابة .

والجواب على ذلك أننى ، عندما أعددت للنشر كتاب لطفى جمعه « الأيام المبرورة فى البقاع المقدسة ، رحلة الحج والزيارة على عهد الملك عبد العزيز آل سعود » والذى تضمن هذه الخطب ، رجعت إلى جميع الكتابات التى كتبها المؤلف عن رحلته إلى الحجاز ، ومن هذه الكتابات أوراق مستقلة عن الكتاب تتضمن الخطب التى ألقاها أثناء تلك الرحلة ومناسبة إلقاء كل خطبة منها، فأدرجت هذه الخطب كما وجدتها بهذه الأوراق فى موضعها

المناسب من الكتاب ٠

ومع ذلك يظهر أن لطفى جمعه كان يعدّ هذه الخطب قبل إلقائها فى مناسباتها المختلفة ويحتفظ بمسوداتها لكى يضعها بعد ذلك فى مكانها المناسب من الكتاب عند إعداده للنشر ، إلا أنه لم يتمكن من ذلك لعدم نشر الكتاب حال حياته ٠ ومسودات هذه الخطب هى التى رجعت إليها وأدرجتها فى كتاب «الأيام المبرورة»٠

ومما يؤكد إعداد لطفى جمعه لهذه الخطب كتابةً قبل إلقائها أن برنامج بطاقات الدعوة إلى الحفلات التى أقامها الملك عبدالعزيز لكبار الحجيج ودُعىَ إليها لطفى جمعه قد تضمن بنداً مؤداه أن « لا يلقى شيىء من الخطابات إلا بعد أن يطّلع عليها رئيس الشعبة السياسية بديوان جلالة الملك » كما هو مدون مثلا ببرنامج حفل العشاء الذى أقيم بالقصر العالى مساء السبت السادس من شهر ذى الحجة سنة ١٣٥٩ هـ ٠

وكتابة الخطيب لخطبته وتهيئتها قبل إلقائها أمر عرفه الخطباء الأقدمون والمحدثون فى كل زمان ومكان ٠ فهاهم الخطباء الأقدمون كانوا يهيئون خطبهم قبل إلقائها ، الأمر الذى حفظها لنا بالرغم من بعد العهد بيننا وبينهم ، فقد كان شيشرون يهذب خطبه التى لاتزال مسوداتها محفوظة حتى الآن ، كما كان ميرابو من زعماء الثورة الفرنسية يكتب أكثر خطبه قبل إلقائها،

وكذلك روبسبيير ٠

وها هم أيضاً الخطباء المحدثون لانكاد نجد منهم من لا يعترف بالاستعداد قبل التكلم وكتابة خطبته قبل إلقائها أمثال جورس وكليمنصو وأرستيد بريان وتشرشل وموسوليني وعبد الله النديم ومصطفى كامل وسعد زغلول وغيرهم ٠

دع عنك مرافعات فحول المحامين أمام ساحات القضاء فى القضايا السياسية والجنائية الهامة والتى لاتزال محفوظة فى بطون الكتب والصحف والمجلات بالرغم من ارتجالهم إياها فى الأغلب الأعم والاكتفاء بتدوين رؤوس أقلام أو نقاط تدور حولها مرافعاتهم مما نجده فى كتاب « باين » نقيب المحامين بباريس «نماذج المرافعات لمشاهير المحامين » ٠

وبعد ٠٠٠

فإننى أترك القارىء الكريم مع صفحات هذا الكتاب الرائد فى موضوعه ، المبكر فى هذا المجال ٠

والله ولى التوفيق٠

رابح لطفى جمعه

مصر الجديدة فى ١٩٩٩/٩/٢٩

- ١ -

الأسلوب

تعريف الأسلوب :

الأسلوب هو الصورة الظاهرة لعقل الكاتب وروحه وفكرته ومرماه ، وقيل إنه ليس في مقدور أحد من المتفوقين في علوم البلاغة أن يحدد الأسلوب تحديداً منطقياً بجمع خصائصه ومنع ما يتطرق إليه من غريب الأوصاف ، أو أن يدل على خواص أسلوب كاتب معين دلالة واضحة بريئة من عوارض اللبس والغموض .

فإن ألفاظ الكتاب المشهورين برفعة الأسلوب وامتيازه في كل لغة من اللغات لا تمتاز باللفظ ولا بالإدلاء ، وإنما تمتاز بالمعنى والغرض والروح ، ومعنى هذا أن الأسلوب يتعين ويتخصص بامتياز ما يمثله من روح وفكرة ومرمى ، ويعنى النقاد أن المعنى الجزل له لفظ جزل والمعنى الرقيق له لفظ رقيق ، وأن الألفاظ والأساليب تتلون وتتشكل بلون الفكرة التي تسيطر عليها ، هذا إلى جمال السياق الفنّي ، والسياق الفنّي شيء يشعر به القارئ ويطرب له كما يطرب للأنغام ، ولا يمكن تعريفه لأنه في الواقع من خصائص صاحبه ، فلكل كاتب في كل لغة سياق ، ونعني بأنه لا يمكن تعريفه، أنه لا يمكن خضوعه لقاعدة واحدة عند كل كاتب ، وهذا السياق

الفنّى ناشىء عن الانسجام والاتساق ومراعاة الإشباع مع عدم التكلف بحيث تبدو السهولة عند الكاتب والراحة المترتبة عليها عند القارىء ، فلا يشعر بمجهود عند المطالعة ولا عناء فى الفهم ، وكأن المكتوب غدير هادىء يجرى فى غير ضوضاء وينساب ماؤه بين الجداول من منبعه إلى مصبه ، كذلك تنساب المعانى المتواصلة كالموجات فى ذهن القارىء ، تنصب انصباباً سهلاً هيناً ليّناً ، وفى الأغلب لا تتهيأ تلك الصفات إلا للعبقرى فى الأدب والتفكير وهو الذى يكتب بغير تكلف وغايته القصوى ليست فى التزويق والتنميق والخلابة اللفظية ، وإنما غايته الأولى والأخيرة فى نقل ما فى ذهنه من الحقائق إلى أذهان الآخرين على طريقة يضمن بها تمام الفهم لهم.

فالحريرى صاحب المقامات كاتب بغير أسلوب ذاتى ، لأن غايته جمع الألفاظ وحشد التراكيب وتنميق النثر والشعر كأنها فرق من الجند المأجورة للعرض العسكرى ، وبديع الزمان وهو صاحب مقامات أيضا كاتب له أسلوب .

ونقول إن لكل كاتب وشاعر أسلوباً يميزه عن سواه ، ولكل أسلوب مذاقاً عند القارىء الفطن ، ولكل ذى أسلوب ممتاز مقلدين يتتبعون خطاه ويترسمون طريقته ولكنهم لا يبلغون شأوه إذا لم تكن روحهم من معدن روحه . فهؤلاء لهم ملكة التقليد وهى قائمة بذاتها وليسوا أصحاب أسلوب ، وقد طرأ لون من الأدب الفكاهى غايته

محاكاة كبار الكتاب مع التصريح بأنها محاكاة فيها لوازم الكاتب الأصيل ومحاكاة الخطباء والشعراء وهذا من انحلال الحضارة .

قلنا إن الأسلوب يختصُّ به الأدباء العباقرة والمفكرون والمفكرون أخصّ من سواهم ، لأن المادة التى يرغبون فى نقلها من ذهنهم بعد تمام الفهم إلى الأذهان الأخرى تنطوى على أفكار مجردة يمكن التعبير عنها بأية طريقة ، أما الأدب فمعانيه عامة غير مقيدة ومن الهين نقلها إلى أذهان الصغار والكبار ، كالذى أورده ابن المقفع فى كتاب كليلة ودمنة . ولما كان عقل مؤلف ذلك الكتاب ذا جانب فلسفى كبير ، فقد أمعن فى الشرح والإسهاب وتخير الألفاظِ للجمع بين الأمرين ، الظاهر وهو السياق الفنى للقصص ، والخفىّ وهو الحكمة التى تنطوى عليها . وأكبر ما يهم العبقرية الأدبية فى الأسلوب هو اختيار الألفاظ وصدق التعبير للصورة الذهنية والتشبيه وحسن التمثيل للموضوع الذى يكتبه بحيث يستكمل الوضوح الأكفى حتى لا يكون عند القارىء حاجة فى الاستزادَةِ ولا يشعر بغموض أو إبهام أو تفسير ، وخير النصوص ما لا يحتاج إلى شرح مهما كان يسيراً . وعندنا أمثال على هذه الغاية التى بلغها أفلاطون الإلهى فى محاوراته الخالدة وفى كتاب الجمهورية ، وفى القدماء الذين استوفوا هذه الشروط أبو عثمان الجاحظ ، وفى الإفرنج المعاصرين أناتول فرانس وعند الألمان جوته وشوبنهاور ، وفى فرنسا فولتير وروسو على سبيل المثال .

فإن قارىء هذه الكتب لا يتلعثم ولا يضجر ولا يحتاج إلى شرح ، ويخيل للقارىء أن أفلاطون وشوبنهاور تكبّدا مشقة فى وضع هذه الكتب ، والجواب عندنا على هذا السؤال بالنفى لأن سليقتهما أعانتهما ، فلم يتكبدا مشقة ولعلهما كتبا كتبهما بغاية اللذة والانشراح وشعرا بالألم قبل أن يفضيا بها ، فلما فاضت بها أقلامهما ارتاحا لعملهما ارتياح الوالدة بعد أن تضع حملها .

ولذا فإن القارىء يشاركهما هذا الارتياح وذاك السرور أثناء قراءته تلك الكتب سواء أكانت فى لغتها الأصلية ، وهذه أمنية الروح وغاية كل عاقل ، أو منقولة إلى لغة أخرى فى حرص وأمانة. وهذا لأن لكل منهما أسلوباً فطرياً كان كامناً فى النفس حتى أظهره التعلم والتعليم ، ولذا وجب على دارس الأسلوب أن يجعل أساس درسه كتباً من هذا القبيل .

فإن الأسلوب يتمثل فى نفس الكاتب أولاً وينضج نضج الطعام المطهى وقد يقتضى أعواماً طويلة قبل أن يبرز حتى إذا جاء وقت تقديمه أو إخراجه إلى العالم كان ذلك أهون ما يكون ، ومن الأمثلة التى سقناها لعارفى اللغات ، الجاحظ وأناتول فرانس وابن خلدون وشكسبير .

أما الأول فكان عبقرياً فى العلم والفلسفة والدين والأدب والاجتماع ، وعندنا أنه لم يُدْرس فى بلاده العربية الدرس الكافى لفهمه وتقديره ، ولم ينتقد النقد العلمى الذى يظهر مواهبه .

وأناتول فرانس عبقرى نضجت عبقريته بعد تمام الأربعين ففاض نهرها على أهل بلده وعلى كل ناطق بلغته ومطيق قراءة كتبه العالمية. وهو عبقرى فى الأدب والقصة والاجتماع .

وابن خلدون ذكر فى مقدمته أنه ألهم كتاب المقدمة فى خمسة أشهر ، قال ولم أتعلم من أرسطو ولا من موبذان ، أى أن المعلومات التى أثبتها فى تلك المقدمة الرائعة ألهمتْ إليه فدوَّنها على غاية السرعة ثم انقطع لتنقيحها ، وكل أهل المواهب يفهمون مقصوده ، فهو يعنى أن الفكر والخواطر قد تزاحمت لديه فأخذ يدوّنها بغاية السرعة كما يدوّن أى إنسان خاطراً سريعاً لمع فى ذهنه ليقيده قبل فرَارِه أو طيرانه .

وقد حاول تقليد ابن خلدون كاتب إنجليزى هو توماس بوكل ، فشرع فى تدوين تاريخ الحضارة الإنجليزية معتمداً على ترجمة المقدمة إلى اللغات الإفرنجية ففشل فى إتمام مشروعه وتوفى فى الأربعين من عمره سنة ١٨٦٢ ، ولكنه كان ذا أسلوب ذاتى امتاز به واصطنعه لنفسه بعد الجهد والتكلف ، وقد بدأ عمله فتى وعاجلته المنية ، وكانت غايته أن يثبت أن تكوين الخلق القومى راجع إلى البيئة الطبيعية ، وفى أسلوبه لمحات من العبقرية وكذلك فى شوقه إلى العلم وتحصيل اللغات الغربية والشرقية وطول الأناة والمثابرة وركوب الأخطار فى سبيل تحقيق فكره ، والذى أعجزه عن تطبيق فكره على حضارة الإنجليز الفرق بين ما اختاره ابن خلدون من

أمثلة عن حضارة العرب وطبيعة أرضهم وجوهم ، وظن بوكل أن فى عزلة الجزيرة الإنجليزية وخشونة أرضها وإحاطتها بالبحر من كل جـانب وقلة الخـصـوبة وصـلابة الأرض أورثت أهلهـا الفـاقـة والاضطرار للمجالدة فى سبيل العيش .

ومن أمثاله نيوود ريد المتوفى فى سنة ١٨٧٥ فى شبابه ومن كتبه « استشهاد الإنسان » Martyrdom of man، وهو ذو أسلوب شخصى نفاذ جذاب لا يمكن اكتسابه بالجهد ، وإنه لنبع قائم بذاته متفجر من قلب مشتعل ونفس وقادة ، وقد لاتوافقه فى بعض مايريد إقناعك به ، ولكنك ترافقه فى إشفاق ورحمة وتصابره وتجامله لأنك تشعر بأن الذى يخاطبك من وراء صفحات الكتاب روح حى ناطق مؤمن بما يقول مخلص فى اعتقاده ، وقد ألقى كتابه الأخير «الطريد » The out Cast ضوءاً هادياً على سر هذا الأسلوب .

ثم إنه فى وقت الإفاقة وامتلاك القوة الآلية يأخذ فى شرحه وتفسيره وتنميته وتوضيحه وإزالة غموضه ولو اقتضى هذا العمل سنوات عدة ، فالعبرة هنا باللمحة الأولى التى أمطره فيها الإلهام ذلك المغيث الأول ، فالسماء تمطر الأرض أولاً ثم تفعل الأرض والزارع فعلهما فى البذور التى بلَّلها الماء ، فكان ابن خلدون زارعاً فى أرض محتاجة للسقيا ، فالبذور منزرعة فى عقله ونفسه ولكنها محتاجة إلى الرى ، عقله ونفسه تربة مخصبة والبذور أفكار متراكمة فى نفسه تراكماً غير واضح ولا جلىّ ، ولكنها موجودة بالفعل ،

والماء هو الإلهام الذى أظهر الزرع والكاتب هو الذى تعهد الزرع بالنقاء حتى نما وظهر .

والرابع هو شكسبير الشاعر المؤلف التمثيلى ، قيل إنه كان سريع الإنتاج ، حتى أبرز ستاً وثلاثين كتاباً فى عشرين عاماً ، وكان لا يمحو كلمة مما يكتب ولا يقدم صفحة ملوثة ولا بنقطة من مداد ، وانفرد من بين شعراء وقته ووطنه بأسلوب ذاتى لا يماثل ، حتى يعده بعضهم من أصحاب الرسالات العلوية فى الأدب والفن.

وليس الأسلوب كما يتوهم البعض أمراً سهلاً على بساطة مظهره عند أصحابه الممتازين ، فهو بمثابة الأنغام للموسيقار ، والتمثال والصورة للمصور ، فإن أساسه الخفى فى تماسك الحواس المشترك وحركات هذا التماسك ، ولذا هو نتيجة مباشرة للتبادل والتناوب الفعلى فى قدرة الاحتياز الذهنى لمراكز العقل ، والمقصود بهذه الجملة أن الأسلوب الممتاز يقتضى وحدة بين الحواس ومشاركة فى الحركة وقدرة فى الاختزان لما يقع تحت الحواس وتنظيماً لهذا الاختزان وإعداداً للإخراج ، أى أنه يحتاج إلى عملية آلية دقيقة أدواتها الحواس ، وموازين لتقدير الأشياء ووضعها فى مواضعها ، فبعض أدواتها ظاهرة وهى النظر والسمع واللمس والشم والفهم التام الكامل الذى يشمل التحليل والتركيب بعد التقسيم والتصنيف والتبويب ، وهذه أعمال تقوم الحواس

ببعضها ويقوم الذهن ببعضها الآخر .

وإذا اعتبرنا الألعاب الرياضية الممتازة نوعاً من الأسلوب الحى ، أدركنا أن العدو والفروسية والسباحة وإلقاء الأساطين عند القدماء أعمال تقتضى الممتازين فيها نفس الصفات التى يتّصف بها الكاتب صاحب الأسلوب ، غير أن هذه الألعاب وما فيها من جمال الحركة وأدواتها ، الجسم الإنسانى والعين والسمع والتحكم العجيب فى الأعصاب والعضلات وصدق التقدير للمسافات والمقاربة بين قدرة اللاعب ومجال الزمان والمكان ، تكون موقوتة بفعلها أى بظهورها فى الخارج ويمكن لصاحبها أن يكررها ويعيدها ويتقنها حتى تبلغ حد الكمال ولكنها تنتهى بانتهاء بروزها ، بينا يبقى أسلوب الكاتب أو الشاعر أو الفيلسوف مادامت نصوصه مدونة فى الورق أو محفوظة عن ظهر قلب ، وهذه الألعاب الفائقة الشيقة يمكن إثباتها بالتصوير الشمسى ويمكن إثباتها على إحدى حالاتها بالتماثيل التى تمثل اللاعب فى أدق مواقفه كحالته وهو يطلق السهم أو ينحنى مستعداً لإلقاء الأسطوانة أو عندما يضرب الكرة بالصولجان وهكذا ، فإن المجهود الذى يعانيه اللاعب العبقرى لايزيد ولا يقل عن مجهود الكاتب العبقرى، والمواهب التى يتحلّى بها الأول لا تخالف التى يتحلّى بها الثانى.

احتياجات الكاتب صاحب الأسلوب:

فالكاتب صاحب الأسلوب الممتاز يحتاج إلى ذخيرة متوافرة جداً تكاد لا تنتهي من الألفاظ الكتابية ، كما يحتاج إلى عدة كاملة العدد من المشاهدات والملاحظات ثمرة مراقبته الحياة ورصد واقعاتها وتقييدها بخيوط الذاكرة سواء أكانت خاصة بالأفراد أو الجماعات أو الطبيعة أو التاريخ ، وسواء أكانت مرئية أو مسموعة، وأن يكون للكاتب مصادر شتى من القوة الفكرية أى قدرة واسعة النطاق على الإظهار والتوضيح تمكّنه من نقل أفكاره إلى ذهن الغير على الكيفية التى يراها فضلى الكيفيات فى التوضيح والجلاء واللون الذى يراه أفضل الألوان فى البيان والإبانة والتبيين عن فكرته إلى أواسط العقول ، فإنه بالضرورة يكون مفهوماً لدى الأكابر ولا يهم فى الغالب الأقل منهم ، إلا إذا بحثوا وفحصوا وطلبوا الإدراك ، وحينئذ لايعجز الأواسط وهم المقصودون بالذات عن إعانتهم .

ولايجوز للفيلسوف أن يستهين بالأقل ذكاء وإدراكاً من الطبقتين السابقتين ، لأن كتب تاريخ العلوم والآداب حافلة بأخبار الأشخاص الذين كانوا فى أول أمرهم فى حكم الدهماء والعوام وكانت قراءة كتاب أو حديث رجل سبباً فى رفع الغطاء عن أبصارهم وبصائرهم ، سواء فى علوم اللغات أو العلوم الرياضية أو فى الأدب أو الفلسفة وخصوصاً الفلسفة لأنها لا تقتضى الاحتراف ويمكن الظهور فيها لصاحب المواهب الكامنة مهما تكن حرفته أو

مصدر رزقه ، فقد كان الفارابى ناطوراً أى حارس بستان ووجد كتاباً فى الحكمة ، وكان الشيخ محمد عبده نفوراً من طلب العلم فاحتال له قريب قروى فأقراه رسالة فى التصوف فاستدرجه إلى العلم والحكمة ، وكان جان جاك روسو طفلاً طريداً شريداً فصار من حكماء القرن الثامن عشر والمحرك الأول للثورة الفرنسية ، وكان سقراط مثالاً ابن مثّال يصنع التصاوير الحجرية . وكان سبينوزا صانع ساعات وعدسات يكسب القوت الضرورى من عمله ويقنع به ، ولأجل هذا نرى أن واجب الفيلسوف أضخم وأثقل من واجب غيره ، لأن كتابه قد يقع بين أيدى صبى أو شاب أو كهل من هؤلاء الفلاسفة الصامتين الذين لم يفتح عليهم قبله ، فقد يربح للخير والنور والحكمة والإنسانية واحداً من هؤلاء.

وغاية الكاتب العبقرى أن ينقل إلى الأذهان الأثر الدقيق الذى أحدثه شىء ما فى ذهنه سواء كان هذا النقل بالتصوير أو المقارنة والتمثيل .

هذه الرغبة المحرقة هى دأب الفيلسوف وداؤه ، وذلك لانطباعه على الغيرية وتشبّعه بحب الخير والأثرة وتجرده فى كل شؤونه من الإيثار والأنيّة ، وبما أنه يرى أن أفكاره وآراءه وخواطره ونتائج مشاهداته هى أغنى وأثمن ما فى الدنيا ، لا لانتسابها إليه بل لطبيعتها العقلية ، فهو يبادر إلى توصيلها إلى سواه حباً منه فى إشراكه فى خيرها العميم .

والفيلسوف كما قلنا يتمايز عن غيره ببضع خلال وخصال ، فى مقدمتها الشوق المحرق للمعرفة والشوق المحرق لنقل ما وصل إليه منها إلى سواه ، وفى النقل إلى الأذهان مشقة كما ذكرنا أولها إفراغ الفكر فى قوالبه الممتازة ومراعاة عقول المخاطبين وأقدار أفهامهم ، وله فى ذلك أن يلجأ إلى كل حيلة باختيار الألفاظ الملائمة، وهذا معنى القول باختيار اللفظ الجزل للمعنى الجزل واللفظ الرقيق للمعنى الرقيق (وهو نوع من المغالطة سنشرحه بعد)، وضرب الأمثال والتكرار والاستطراد ، وقياس الجمل وإفراغ المعنى الواحد فى جملة تعابير وإشباع المعانى بالتوضيح حتى يخيل له أنه أدى وزيادة عن الأداء ، وأول ما يجب عليه في اختيار الألفاظ أن يفضّل اللفظ الذى لا يحمل أى لبس أو غموض أو اشتراك . وقد يجد مشقة عند هذا التفضيل ، ولذا نرى بعض الكتاب يضعون الألفاظ ويسكونها سكاً كما تسكّ النقود .

ومن أمثال الاختيار ، اللفظ القوىّ والمتين . وليس لأحدهما أن يحل محل الآخر اعتباطاً ، وقد يضطر الشاعر لأحدهما لأجل القافية ، أما الكاتب فهو ملزم بأحدهما . وقد يجمع بينهما ، فالقوة لفظ عام والمتانة لفظ خاص ، القوة تظهر آثارها بفعل القوى وقدرته على المقاومة ، والمتانة تدل دائماً على تركيب الأجزاء ، فقد نقول هذا الكلام المكتوب متين وقد نقول هذه الخطبة قوية وهذا السبع

قوى وهذا البناء متين ، والعبقرى فى الأسلوب هو وحده الذى يختار أحد اللفظين لما يكتبه ، وفى الأغلب يكون للأسلوب الممتاز شأن كبير فى رفعة شأن المعانى المتوسطة . ولكن الأسلوب العادى أو الضعيف ، أو الركيك لا يعيب الفكرة العالية.

ولانغفل أن الفيلسوف لا يخترع ولا يتخيل على الطريقة التى يلجأ إليها القصاص أو الراوية أو الشاعر أو المؤلف التمثيلى ، لأن عمله نفسه يعوقه عن الاسترسال ، ولأجل هذا كان مجال الموضوع عند الفيلسوف محدوداً ، وقلمه فى الإيضاح مقيداً ولكنه أكثر حرية فى التفصيل والتخصيص ، وإن تكن كل فكرة عنده قائمة بذاتها إلا أنه مسؤول عن إفراغ الفكرات كالحلقات فى سلسلة واحدة ، ولكن المهم عند القصاص والشاعر مجموع السياق والحوادث التى رسم لها خطة سابقة ، والمثل الأكبر عندنا فى القطعة التمثيلية التى هى غاية الفن الإنسانى هما فاوست لجوته وهمليت لشكسبير ، وقد قدمنا الأولى لأن الثانية مأساة الحياة البشرية ، أما الأولى فهى مأساة العقل البشرى ، وبقدر إيجاز همليت واحتوائها فى صفحات متوسطة العدد وسرعة إنجازها بحسب ما روى عن مؤلفها ، فإن فاوست اقتضت ستين سنة فى تمام وضعها . وكلاهما تمتاز بأن القارىء أو السامع لا يضجر ولا يتعب أثناء تلاوتهما أو سماعهما سواء أصحبتهما الموسيقى أم لم تصحبهما ، ويجد القارىء الممتاز

فى ذهنه صدى لكل منهما ، كأنها قصته أو روايته أو خبر آماله المحطمة أو تطلعه إلى العلا وسرد آلامه وهمومه ، فهذا الانسجام فى الموضوع والأسلوب هو الذى وسمهما بميسم العبقرية ووصم غيرهما بوصمة الاصطناع والتكلف .

جمهورية أفلاطون وإلياذة هوميروس وشعر المعرى:

ومن دأب الأسلوب الممتاز أن يجندك تحت رايته ويضمك تحت لوائه، ومعنى هذا التجنيد والضم أن الأسلوب الممتاز يجمعك إلى صف صاحبه فى لمحة البصر . خذ مثلاً لذلك جمهورية أفلاطون وإلياذة هوميروس وشعر المعرى .

فإنك كائناً من كنت جنساً وعصراً ولغة ووطناً وشعوراً ، تدرك للوهلة الأولى أن أفلاطون ليس بناقل عن غيره وليس بواصف شيئاً يراه وأنه يقصد إلى خلق المدينة الفاضلة بحسب فكره وأنه يشمل حظّ الإنسان فى وجوده ويحلل العقل البشرى فى إدراكه ويحاول التوفيق بين معايب الحياة الإنسانية ونقائص الجسد ، وبين فضائل الحياة وتطلع المادة للكمال . وقد جهد نفسه فى البناء والتعمير بعد الهدم والتدمير ، وأنه ينقل هذه كلها بسهولة تامة حتى تراها رأى العين وتفهمها وتتوهمها ملموسة باليد، ويعرض عليك فى نفس الوقت عقول المتحاورين والمجادلين الذين جعلهم يتناولون الموضوع

من جميع جهاته من مولد الطفل إلى مماته وحسابه وثوابه أو عقابه. وليس هذا وحده الذى نقصد إليه، بل نقصد إلى أنك بمجرد اطلاعك على الصفحة الأولى تبدأ تشعر شعور هؤلاء الفلاسفة المتكلمين فى العصر اليونانى القديم وعلى رأسهم سقراط ، دون أن يتكلف الكاتب ذلك الشىء البارد السخيف الذى يسمى « خلق الجو الملائم » وهو كلام فارغ وبدعة للنوكى والعجزة والضعفاء . وليس هناك جو ولا لون محلى أو غير محلى ، بل هناك عقل ممتاز يرغمك على فهمه ومحبته والانضمام إليه واتحاد الموجات العقلية بينك وبينه فيحدث الانسجام وتصير جزءاً منه فتفهمه بالمحبة لا بالإغراء وبالباطن لا بالظاهر ، فالذى يكتبه العبقرى جزء منه وإن كان دائماً يعالج الأمور الخارجة عنه ولكن يودع فى كتابته شطراً من روحه وأشعة من نوره .

أما إلياذة هوميروس فديوان للحرب القديمة عند اليونان ، وهذا الآخر الذى اخترناه لا يحوجك إلى تفصيل أو شرح أو مقدمات بل يخوض المعركة ويستدرجك لخوضها ، فتقرأ وكأنك تعرف الميدان وأبطاله ودروعهم وأسلحتهم ونضالهم المزدوج ضد الآلهة والبشر وأسباب شقاقهم وشقائهم وخلجات أنفسهم وحركات أفئدتهم وأخيلتهم وأذهانهم وعاداتهم وعادياتهم وكل تعليق وشرح وزيادة فى التفسير فضول وتطفل وعالة على النصوص الأصيلة .

ولا يقل هذا الرجل شأناً فى الأوديسة عن الإلياذة ، وقد انتخب أحد أبطالها فتعمق وأسهب فى الوصف وبيان المخاطرات والمغامرات ، تتشابه الفصول فى مقدماتها وتركيبها ولا تتماثل فى روحها وصلبها وعجائب تصويرها ، وغايته الفنية أن يتتبع حظوظ فرد من المجموع ويتقصى أخباره فى هوادة واطمئنان كالفنان الذى يصور بستاناً ثم يختار شجرة بسائر أغصانها وأفنانها وأزهارها وأثمارها ، فأعلمك بالبستان جملة وتفصيلاً ووقفك على حقيقته تركيباً وتحليلاً ونقل إلى ذهنك صورته كاملة .

والثالث المعرى لا نحب نثره بقدر محبة شعره ، فهو فى النثر نحّات حفّار مثال ماهر يعرض ثروته ويبذل بضاعته مثل قارون إذا طرح أمواله على مقروعة الطريق ، ولكن شعره كان فيض الخاطر ونغم المشاعر وتعبير الحكمة الكامنة فى نفسه ، وهو على غرابة أسلوبه وغرابة تراكيبه لا يبدو غريباً ، لأن الأفكار الحية المتلألئة وراءه تسنده .

وليس المعرى فى شعره من أرباب الأساليب الرائعة إلا بفكره، ولذا لا يشتعل عند قارئه غير الفكر ، أما مشاعر الجمال وحسن الصياغة وجمال الألفاظ فتبقى خامدة لا يحركها من فنه محرك . فلم يكن الجمال أو الخلابة عنصر هذا الأسلوب ولكن عنصره هو الفكر وظواهر الحياة الدنيا منعكسة على مرآة الشاعر الضرير ، ومقاييس الألم وأحاسيس الحزن والضجر والاستسلام الظاهر

حيال الصرخات المكتمة من هذه النفس الشاعرة ، وقد اكتسى الأسلوب على الرغم من صاحبه ثوباً من جمال الحكمة وجلالها وروعتها كأنه مخروط شفّاف ولكنه قاتم كالماس الأسود الفاحم الذى تخترقه الأشعة وتتلون بلونه.

وقد نجح المعرى فى نقل شعوره إلى أذهان قرائه فى حياته وبعد مماته منذ ألف عام إلى الآن . وقد تخرج من نثره سواء فى رسالة الغفران أو فى كتاب « الفصول والغايات،» كمن أكل أكلة دسمة يشعر بخيرها ودسمها ولا يستطيع هضمها إلا بعد وقت طويل ، ولكن تخرج من شعره وقد هضمت الطعام فى وقت أن وقعتْ عينك عليه قبل أن تتذوقه أو تمضغه ، إلى هذا القدر وحتى هذه الغاية تراه مشهياً ومشبعاً ومطهياً كما تريده وكما أراد طاهيه الحاذق ، لأن مهمة صاحب الأسلوب الممتاز أن ينبّه عاطفة السرور والتلذذ عند القارىء وأن يستحضر أمام ذهنه سلسلة من التصاوير المتلائمة المتداعية التى تلبى نداء بعضها بعضاً بغير تكلف ، فيستمر القارىء فى معرض يتجدد من الأفكار التى تعرض عليه وهو مستريح ، كراكب القطار يشاهد المناظر المتتابعة أو كالمستمتع بالصور المتحركة على الشاشة البيضاء يرى ويسمع أنغاماً موسيقية موافية ومناسبة لما يرى .

وعلى الكاتب أن لا يحمل صفحته ما لا تطيق وما لا يطيق القارىء من التفصيل والتدقيق الذى ينوء به كاهل الذهن ويخرجه

عن حالة الارتياح ، ومن جمال البيان أن يترك شيء من التصوير والتفصيل لذهن القارئ فيحزره مطمئناً ويتخيل ما لا ينص عليه بما هو منصوص عليه ليسبح الخيال فى ملكوت أسمى من المادة ، ولتحدثه نفسه بما قد كان وقد يكون على حد قول الشاعر فى النفس حاجات وفيك فطانة .

الغاية من الأسلوب :

فهذه الحالة التى تدع القارئ فى ظلال وارفة من التأمل والتخيل لا تصل به إلى حد الشك فى فهم المقصود ، هى الغاية القصوى من الأسلوب الممتاز فيشعر بدوره بلذة المشاركة الفعلية مع الكاتب الذى يراه لم يستأثر بكل شيء ، وكل هذه بحيث لا يخل بتسلسل الأفكار ، ولا يزعزع من ثقة القارئ الوسط بمقدرة الكاتب ، وبحيث تتوارد الجمل فى نظام موسيقى موزون ، حتى يتم الانسجام بين الذهن وحاسة السمع . ومن هذه الناحية أثبت النقاد أن الناثر القدير صاحب الأسلوب الممتاز يكتسب فى آخر عمره قدرة على إخراج النثر موزوناً بأوزان الشعر بدون قصد ولا تكلف ، كما جاء فعلا فى كتاب أناتول فرانس « ثورة الملائكة » ، وقد اجتهد بعض أدباء اللغة العربية فأظهروا عشرات من آيات القرآن المجيد موزونة بأوزان شعرية صحيحة ، وهى كما لا يخفى من صميم النثر

وجمعها بعضهم ، وكذلك فى الأحاديث المحمدية ، ويستدلون بذلك على أن القرآن وهو ليس بقلم كاتب أو ناثر ماهر قد جمع فى بعض أشكاله ما وصل إليه جبابرة الأساليب البشرية بعد ممارسة النثر والشعر عشرات السنين .

وكل هذه المحسنات اللفظية والمعنوية تحكمها درجة الحساسية عند الكاتب وتسيطر عليها ألياف الأعصاب التى تجرى بين البصر والسمع ومراكز النطق في الدماغ البشرى ، فهناك مقر اللغات ومدار فلك اللغات المنطوقة ، ولذا وجب أن يكون عند القارىء من الاستجابة قريب مما عند الكاتب من النداء ، فإن كثيراً من السرور والتنعم بالقراءة يرجع إلى قدرة القارىء على الفهم ، كالإرسال والتلقى فى أداة الإذاعة ، فلابد من التساوى بين الموجة المرسلة والموجة المستقبلة ، وإلا فلا حياة لمن تنادى ، وإن الكاتب مهما كان بليغاً فلا يمكن للأعمى أن يقرأ صفحته ، والصوت مهما كان عالياً وجميلا فلا يستطيع الأصم أن يسمعه ، كذلك الماء الذى يفقد طعمه فى فم المريض ، إن القول بأن الجبال تندك من الخشوع لدى سماع القرآن قد يتم بمعجزة خارجة عن طاقة البشر ، ولكن نكتب عن الإنسان وقدرته فى التأثير على أخيه الإنسان .

وقد شاهدنا عند بعض الكتاب أثناء إخراجهم أن أحدهم يهبّ بغير قيد فى الزمان والمكان ويبدأ يكتب كأنه يُمْلى عليه ، فتتوارد

الألفاظ والمعانى والخواطر القديمة والمختزنة والجديدة الملهمة فى وقتها هذا ، ويأخذ الكاتب فى الكتابة أو الإملاء كأنه نافورة تبعث بالماء الملون فى تصاوير وأشكال وهندسات وأوضاع وكلها منصبة على الذى يعالجه من الكتابة ، حتى يخيل إليك أنه لم يبق فى معين الألفاظ والمعانى والتشبيه والمجاز والكناية والتورية واللعب بالكلمة ما لم يستخرج وما لم يسلم قياده ، وهو إذ تتوارد خواطره ينسى بعضها ويقدم البعض أو يؤخره ، فتعود الذاكرة إلى إنعاش ما نسى وتعمل خفية فى تنظيم ما كتب ، حتى إنه نفسه لو وضع خططاً متينة لا يمكنه أن ينفذها بهذه المهارة الفطرية ، وحتى إذا حاول بعد انتهاء تلك الفترة أن يعيد النظر فيما وضع له ، لايجد عيباً ولا نقداً يوجه إليه همة الإصلاح والتنقيح ، وهكذا يبقى فياضاً مثمراً زمناً ما ، حتى يعروه التعب وليس تعب العقل ولكنه تعب الأعضاء والمفاصل التى تشبه جواداً تعب دون أن يشعر فارسه بالتعب ، ولو أن الجسد أمكن استبدال جسد آخر به كما يفعل الفرسان فى الحروب أو فى الغزو ، لما تأخر الكاتب الموهوب عن تغيير بدنه ليتم سيرته ، لأنه كما قلنا يعمل بسهولة وانشراح ولذة ولا يشعر بالتعب ، وهذا السرور وتلك اللذة التى تصحب عمله وتلازمه يدخران للقارىء فيشاركه إياهما . فتزاحم القوافى والمعانى واستسلامها التى ذكرها بعض شعراء العرب صحيح ، وأنهم لم يعبروا التعبير الكامل عن الحقيقة عند رجال أمثال امرىء

القيس وأبى تمام وأبى نواس والمتنبى ، وطاعة اليد واللسان للعقل فى تسليم تلك الذخائر أمر له كل العجب عند من لا يفهم . وهذا الأمر مشاهد عند الفلاسفة الجامعين بين المواهب الأدبية والعبقرية الفلسفية ، وأمتنهم فى العصر الحديث فردريك نيتشه .

وقد يمتاز عصر بأسره بأسلوب عما سبقه وما يلحقه من العصور ، فإن العصر الجاهلى له ما يميزه عن العصور الأخرى ، وكذلك عصور الحضارات كالقرون السابع عشر إلى التاسع عشر ولا سيما آخرها وهو عصر الانحلال ، ففيه من السمو والجمال ما فى كل الثمار من الحلاوة بالنسبة لأشجارها وهو لحن الوداع عند أمم الغرب والأمم التى تقلدها ، ولعصور الثورة أو العلم أو المادة أو المظالم أساليب عامة وخاصة ، فالمتصوفون النظريون فى القرون الأول والثانى والثالث والرابع بعد الهجرة لهم أساليب خاصة فى الدعاية والتعبير عن عقيدتهم وشرح أحوالهم غير ماجاء فى ألسنة المحبّين منهم أمثال ابن الفارض وهم فى هذا أخص من سواهم ، لأنهم وإن كانوا شخصيّين إلا أنهم يعبرون عن أعلى ما تشتاق إليه الأرواح التى من معادن أرواحهم .

مقولة بوفون « الأسلوب هو الرجل » :

ينسب إلى بوفون العالم الفرنسى الطبيعى (١٧٠٧ – ١٧٧٨) مؤلف التاريخ الطبيعى أنه قال فى خطاب استقباله فى الأكاديمية

«الأسلوب هو الرجل نفسه أو الإنسان نفسه » كان يقصد بها إلى أن طريقة التعبير عن الاكتشاف العلمي - ومآله أن تملكه الإنسانية بأسرها - أن طريقة التعبير عنه تبقى ملكاً لصاحبها وكاتبها الذى عبر عنها ، وليس المقصود بكلمته أن الأسلوب يمثل أخلاق الكاتب أو يدل على نفسيته .

أداتان من أدوات المعرفة ، الفهم والإدراك :

وهذه الكلمة تنطوى على فكرة فلسفية لا فكرة خلقية ، أما تطبيقها العقلى فيما يتعلق بالكتابة وهو الموضوع الذى يشغلنا ، فيقتضى ذكر أداتين من أدوات العقل لهما طريقتان فى الفهم والإدراك ، وكلاهما أداة من أدوات المعرفة التى تصل إلى ذهن الكاتب ، فالأولى هى القدرة على الفهم التى يظهرها الذكاء ويولدها، فيقال مثلا إن اختراع الأبجدية وليد إدراك عقلى ممتاز Concep-tion، ويمكن تقريب المعنى إلى الذهن إذا تصورنا تلك الأداة الفكرية أماً تحمل وتلد .

أما الأداة الثانية فهى وسيلة المعرفة بالروح والحواس Per-ception وهى القدرة الأعلى والموهبة الأغنى والأعظم ، فعالم الفهم والإدراك عن طريق الروح والحواس هو الذى يغذى الأداة الأولى Co-neption وكل بناء العالم الفكرى قائم على هذه الأداة الثانية ولاتوجد فكرة مدركة إدراكاً معنوياًConception إلا ووراءها معرفة

بالروح والحواس أو سلسلة معارف من هذا النوع ، فلو افترضنا العقل البشرى مصرفاً وأن لهذا المصرف رصيداً من النقد ليقابل بها سداد ما يطلب منه ، فالأداة الثانية Perception هى ذلك الرصيد المودع فى الخزائن الذى يضمن سلامة المصرف وقدرته على السداد ، وأن الأداة العقلية الأولى Conception هى أوراق البنك والصكوك والبنكنوت التى تقدم إلى المصرف والتى تحمل بيان المبالغ التى تصرف ولا قيمة لأوراق البنك بدون رصيد . ولما كان الرصيد فى المكان الأول فيمكن أن يقال بحق إن أداة الإدراك الثانية Perception هى مستودع الأفكار الأولية وأن أداة الإدراك الأولىConception هى مستودع الأفكار الثانوية .

فمجرد إدراك الشىء على الطريقة الأولى Conception بدون إدراكها على الطريقة الثانية لا يقدم لنا إلا نوعاً من المعرفة العامة، وهذا الإدراك مجرد أو عقلى أو معنوى ، أما الإدراك الثانى فهو مادى محسوس له شكل وقوام . ولايمكن الإنسان أن يفهم الأشياء فهماً صحيحاً وعلاقتها بعضها ببعض وبأنفسنا إلا إذا أمكن لنا تصورها وتمثيلها وإحضارها للذهن فى إدراكات مادية من النوع الثانى Perception[1] بدون حاجة للألفاظ والكلمات .

---

(١) من معانى هذه اللفظة : مفهوم أو مدلول أو تصور ذهنى (لشىء ما).

فـالكاتب الذى لايملك الإدراك من النوع الأول Conception[1] يحصر عمله فى الألفاظ ويتجر بالكلمات ولايمكنه أن يؤدى إلى نقل المعرفة الصحيحة إلى الأذهان ، لا يستطيع أن ينقل إلى الأذهان إلا معرفة نظرية قد تؤدى إلى نتائج ، ولكنها ليست المقصودة بالذات ، لأن القارىء لايجد فيها جديداً بل يجد فيها ما سبق له علمه ، لأنه لا يقل عن الكاتب ثروة فى الأفكار الأولية ، أى أن ثروته من نوع الأوراق المالية (البنكنوت) . أما الكاتب الصحيح فهو صاحب الرصيد وهو الذى يدرك الأشياء على الطريقة الثانية Perception وينطق الأشياء بلغتها وعلى لسانها ، ثم يتناولها ويضعها فى قوالب الإدراك الأولى Conception ليمتلك ناصيتها ويقدر على إخراجها ويقدم إلينا معرفة جديدة قد مرت بمسبكه ومصنعه ، أى بمخروط عقله الممتاز ويفهمها أمثاله الذين عندهم قدرة الإدراك الثانوية ومن هم أقل منه من أصحاب الإدراك على الطريقة الأولية ، وهذه القدرة من الكاتب والقارىء على إدراك النوعين من الإدراك أى التوع الأعلىPerception والنوع الأقل Con-ception هى مقياس العبقرية فى الأسلوب وفى الفهم ، وبها يقاس ويوزن أصحاب الذكاء والفطنة وأصحاب الأحكام الصحيحة وأصحاب الابتكار الذهنى ، فأولو الألباب هم أصحاب الإدراك

---

(١) من معانى هذه اللفظية : إدراك حسى أو قدرة على الفهم .

الثـانوى Perception لأن لب العـبـقـرية والمعـرفـة الحـقـة هـو ذلك الإدراك، وهـم الذين يفكرون بالتصور والتمثيل والتصوير والمثال مما يسميه أهل الغرب image بمعنى الخيـال ، وكل تفكيـر أصيل ذى قيمة ، يتم فـى الذهن بصورة مرسومة تمثل شيئاً مـادياً ولو كان فكرة، ولأجل هذا كانت المخيِّلة من أهم أدوات الذهن ، وأن الأذهان التى تعوزهـا المخيلة لا يرجى منها خير كثير ولا قليل فى دوائر العقل ماعدا الرياضيات ، فإنها لا تحتاج إلى المخيلة ، أما الأفكار المجردة الخالية من لباب الإدراك الثانوى فتشبه أشكال الغيوم التى تتخذ صوراً وهيئات مختلفة موقوتة لا تلبث أن تتحلّل وتتلاشى لأنها خلو من الحقـيقة والثـبـات ، أما الأفكار ذات اللب التى مـصـدرها الإدراك الثـانـوى Perceptionفأشبه بالأبنية المتـينة القـويمة ذات القوام المادى الثابت .

وغاية كل كاتب أو شاعر أن يرشد القارئ إلى المعرفة المادية أى ذات القـوام المتـمـاسك التى بدأ بهـا الكاتب أى امـتلكهـا عند كتـابته، فإن لم تكن هذه هى غايتـه أو إذا عجز عنها فقد أخفق، و«المعرفة المادية» هنا يقصد بها المعرفة الحقة المتجسدة سواء أكان الكلام الذى ينقلها نثراً أو شعراً ، فلسفة أو أدباً ، تاريخاً أو علماً، لأن وسـيلة نقل المعـرفـة من ذهن الكاتب إلى أذهان القـراء لا تـهمّ سواء أكـانت نظمـاً أو نثراً ، وكذلك موضوع الكتابة لا يهم سواء أكان علماً أو حكمة أو أدباً أو قصيداً .

وغنى عن البيان أن المقصود بهذا الشرح الوجيز والتفريق بين نوعى التفكير أو أداتى الفهم وهما Conception و Perception، أن تقسم أرباب الكتابة إلى نوعين ، النوع الممتاز والنوع العادى . وأن الكاتب الأول يمتاز بقوة الأداة الثانوية ، والكاتب من النوع الثانى يشارك الكثرة الغالبة من القراء فى تداول الأوراق المالية من مصرف العقل ، ولذا قد يتقدم إليك رجل بألف صك من مصرف العقل الذى لا رصيد له فلا تأبه لكثرة أوراقه ، ولكنك تكثرت بمن يتقدم لك بالرصيد الذهبىّ وهو حقيقة متجسدة لها قيمتها بل قيمتها فيها ، بينما الأول لا يحمل إلا ورقاً مطبوعاً وممهوراً بإمضاء.

إن رؤية الشيء نفسه ، كالفيل أو القصر أو القمر أو البحر وملاحظته ومشاهدته بالعين والوقوف على صورته المادية وشكله المتجسد ، أكثر فائدة وأعظم نفعاً وأغزر معرفة من أى قراءة أو سماع . وإن أبلغ الواصفين فى غيبة الشيء بدون رؤية سابقة لا يصل إلى جزء من ألف مما يصل إليه بالمشاهدة ، حتى ولو كان الواصف عليماً بالشيء الموصوف تمام العلم ، وهذا بالطبع عندما يكون القارىء أو السامع لم تسبق له مشاهدة الفيل أو القصر أو القمر أو البحر ، ويكون هذا ظاهراً جداً وثابتاً إذا علمت عن طريق السماع أو القراءة وصف أحد هذه الأشياء الأربعة فتكوّن عنه حتماً فكرة ما ، فإذا وقع لك أنك رأيت بعد سماع الوصف أو قراءته هذا الشيء ، فإنك تدهش من الفرق بين الفكرة التى كونتها بالسماع أو

القراءة وبين الفكرة التى أعطتك الحقيقة إياها ، مهما تكن قوىّ الخيال ، فهذا لا يطعن فى ذكائك ولكن يطعن فى الطريقة والوسيلة والأداة ، لأن كل حق وكل حكمة بل سر الأشياء كلها كائن فى كل شىء حقيقى أى مادى ، فى كل شىء متجسد ، كما يوجد الذهب النقى فى خاماته الممتزجة بالأجسام الغريبة فى تلك الكتلة الداكنة القاتمة الخشنة التى تصهرها النار فتجود بالمعدن النفيس ، والمهارة كل المهارة فى استخراج العسجد .

التفكير والابتكار:

فالكاتب الذى لا يرضيك ولا يشبعك ولا يقنعك على الرغم من بذل جهده ، هو الذى اكتفى بالتفكير ، إما لأنه لم يكلف نفسه أقصى الجهد ، وإما لأنه لا يملك الأداة اللازمة ولم يدرج على الطريقة الثانوية ولم يصل إلى اللباب Perception ، ولعله استعار معرفته وقدمها إليك فى كتابه فلا تفيد شيئاً . فإن مجرد التفكير والتأمل لا يغنى عن الافتطار والابتكار فتيلا ، وهذا ظاهر من كتابة رجل يتأنق فى الأسلوب ويزوّقه وينسقه ، وتجارته هى هذا الكلام الجميل المرصوف المصفّف المنظم ، كشعر الحسناء المختالة، فإنك قد تعجب لتناسق الألفاظ وخلابتها وبريقها ولكنك سرعان ما تملّ كتابته وتتعب من شدة البحث عن المعرفة وعن الحق، والحيوان الذكى قد يخدع باللقمة الملفوفة فى غلاف شهى ، ولكنه لا يلبث أن

يلوى رأسه بعد شمّها فيعرف أن ظاهرها جذّاب ولكنها خالية من الدسم . وهذه الطرائف الخلابة ليست أساليب لأنها لا تنطوى على حقائق ولا معان مبتكرة ولا ثمار تفكير أصيل، ولا تعيش أمداً قصيراً ولا طويلاً ومثلها كالجميلة الصورة الثقيلة الروح .

وخذ فى نفس الوقت كتابة رجل من الطراز الثانوى ، ومن ذوى الألباب ، فمهما كان نوع كتابته وطريقته ولغته ولهجته وبلاغته، فإنه يستهويك ويفتنك ويستدرجك مادام يقدم إليك معرفة أصيلة وحقيقة جديدة فى ثوب قشيب .

فالابتكار فى المعنى وهو بيت القصيد لا يبدعه غير الموهوبين، والموهوبون أنفسهم لاينتجونه طريفاً إذا لم يستثمروا مناجم أدمغتهم ويغرزوا فى أعماق تلافيفها ومطاوى أغوارها معاول تفكيرهم ومهاميز جهادهم ليكشفوا عن مستغلق أرواحهم وعن كل ما تلبد فى مستودع أذهانهم وتستّر فى مكنون طباعهم وخفايا غرائزهم .

ولكن هل من السهل إجهاد الذهن لاستخراج ما فيه من الدرر والآلىء ؟

إنه لعمرى إجهاد عنيف لا يضاهيه إجهاد الغواص لاستخراج لآلىء البحر ، يتطلب علماً وجلداً وخبرة فى الحياة ويستدعى جهداً خارقاً فى التفكير ورهفاً دقيقاً فى الملاحظة وإنعاماً خالصاً فى الروّية تتعاون كلها على بعث اليقظة فى الحواس، والوعى فى البصيرة ، والحواس المستيقظة والبصيرة الواعية مصراعا الدماغ

لا ينفذ إلى دخائله دونهما ، ولا تستخرج درره الكامنه فى أغواره إلا بهما . فلا شيء في هذا الكون يجنى عفو الخاطر ، بل بشق النفس وإجهاد الجسم والعقل .

فالعلم الذى نستوعبه بعام ، هو نتاج كفاح الأجيال ، والكتاب الذى نتصفحه بساعة هو نتيجة جهاد الأعوام . فارتقاء الإنسان إذاً مصدره الفكر ، ولولا أعمال الفكر الشاقة لما كانت الحضارة ومستحدثاتها ولا العلم ونواميسه ، فكل جليل وجميل فى الكون تمخض فكراً فى الذهن قبل أن تجسّم كتاباً أو تحول آلة أو تقمص فناً ، فمن شاء الخلق والإبداع فليفكر وألا يمل من التفكير، فمن لا يزرع لا يحصد ومن لا يواصل التفكير لا يخلق ولا يبدع .

أما البلاغة فى المبنى فمزيتها خلوها من الحشو والتكلف وبعدها عن الإبهام والتعقيد ، وحرصها على الوضوح والطلاوة ومجيئها عن محض الشعور والسجية .

هكذا الأسلوب لايعتبر جزلاً إلا إذا كان سهلاً ممتعاً مؤديا المعنى بلغة صحيحة وعبارة شيقة ولفظ متلاءم .

ولا نرانا فى حاجة إلى ضرب الأمثال، إلا بالإشارة وحسب، فإن مقدمة ابن خلدون خير من قراءة مقامات الحريرى ، وشعر المعرى والمتنبى وابن الرومى خير من أشعار الفرزدق وجرير والبهاء زهير والبحترى . وقراءة أفلاطون خير من قراءة عشرات من الفلاسفة أمثال هيجل وفيخته وشليجل وشلنج ، وقراءة شوبنهاور

خير من قراءة عشرات من أمثال توماس ريد وأرسطو وكل أتباعه وتلاميذه سواء أكانوا من العرب أو غيرهم ، ماعدا صاحب رسالة حى بن يقظان وابن سينا ، وقراءة جوته وشيلر تغنى عن كل شعراء ألمانيا ، وقراءة أوزفالد شبنجلر تغنى عن أسلافه ومعاصريه فى فلسفة التاريخ ، وقراءة شكسبير تغنى عن أسلافه ومعاصريه وأخلافه ماعدا برنارد شو وهو من أولى الألباب فى العصر الحديث، وليس فى الدنيا الجديدة فلسفة ولا أدب يضرب المثل بهما ، وقراءة دانتى ولوكريس وماكيافيلى تغنى عن أهل إيطاليا جميعاً وكذلك سرفانتس فى إسبانيا .

وقد ضربنا هذه الأمثال عفو الخاطر ولا ننسى بعض الأئمة فى الفلسفة مثل عمانويل كانط وفى الفن هنريك إبسن ، ، وفى الشعر العربى أحمد شوقى وفى النثر ابن المقفع وبديع الزمان الأصبهانى وياقوت الحموى ، كل هؤلاء وبضعة من الآخرين من أولى الألباب الذين شاهدوا العالم وأدركوا المعانى على طريقة الإدراك الثانوى Perception ، مثلهم فى ذلك مثل الحكماء السبعة الأقدمين ومثل هومير ومثل جيمس جويس صاحب عولس الحديث ، لاحظوا الحياة وحللوها وتخيلوها وهضموها ثم أخرجوا لنا كتبهم فوجدت صدىً فى أنفسنا ، وكلهم كتبوا بغير تكلف وتحت تأثير المواهب الملجئة الملحة عليهم فى نقل مشاعرهم وأحاسيسهم إلى غيرهم ، فكانوا كمن حطَّ عن كاهله عبئاً واستراحوا بعده استراحة

الحبلى إذا وضعت حملها فولدوا للخلود ، ولم يلدُوا للموت بعد العرض فى أسواق الابتذال ، ولسنا هنا بمجال التكلم عن العبقرية وتحديدها ونسبة هؤلاء الأفاضل إليها لنفيض فى هذا الباب ، ولكنا بصدد إنتاجهم بالنسبة للأسلوب بالمعنى الذى قصد إليه بوفون لا بالمعني الذى قصد إليه مشوهو معناه ٠

روسووباسكال وجيو:

خذ مثلا ثلاثة من الأفاضل روسو وباسكال وجيو قد قضوا نحبهم بعد أن خلفوا آثاراً خالدة ، فإن مسحة الإخلاص والصدق والبحث عن الحقيقة تبدو فى كل ما خلفوا ، ونحن مع تقدير إرنست رينان وإعجابنا بجمال أسلوبه وسعة عقله ولا سيما الحيلة التى يحتال بها على القارىء حتى يضمّه إلى صفه ، وسعة علمه وتشعب مواهبه ، فإننا نضع هؤلاء الثلاثة فى مكانة أعلى من مكانته ، فقد خلوا من التصنع والتكلف وكانوا أقرب إلى قلوبنا ، مع أنهم أبقوا على تقاليدهم وعقائدهم منه هو الذى طلّق دينه فى سبيل فكرته الفلسفية ، وهذه تضحية كبرى بل كبرى التضحيات فى عصره ، ودليل عظيم على شجاعته وفضله وتمسكه بالحق وإن خالف العقيدة التى تربّى فى حجرها ورضع لبانها واستعد لخدمتها ، هذا بلا ريب شىء عظيم جداً يجعلُه فى صفوف الشهداء والمجاهدين ، ولا ننسى فضله النسبى ولا نهضم حقه مفكراً وكاتباً وفيلسوفاً وعالماً وأديباً

عالمياً ومفرداً علماً ، ولكن كل واحد من الثلاثة الذين ذكرناهم يشفّ عن إخلاصه ووحدة فكره وهبته العليا للإنسانية .

لقد كان روسو حكيماً فطرياً ، قد تذرف الدموع وأنت تقرأ اعترافه وحبه وخيبته ، وكان باسكال لا يملك التفريج عن صدره إلا بالجرامة التى انتزعها من ضيق حياته وقيود بيئته وأغلالها ، وكان جيو صارخاً في عالم الألم والحيرة ومدركاً لما حوله من الجمال والجلال ومتحسراً على الحياة ، وقد أثبت للعالم ما يستطيع نبوغ الرجل الذى لم يتعدَّ الربيع الرابع بعد الثلاثين أن يتمه فى عشرين عاماً من الإلمام بحقائق الدنيا ، وهنا ، ولا حول لأحد ولا قوة ، يصحّ التساؤل فى خشوع وخضوع وتسليم ماذا كان ينتج هذا العقل الممتاز لو مدّ فى أجله وبسط له فى الحياة والرزق مثل ما مدّ لرينان وڤوليتر وكانط وأرسطو ؟.

ونعتذر للقارىء عن هذا الاستطراد ، فقد كان هؤلاء الأربعة من ذوى الألباب ومن أرباب الأساليب التى تدل على عقول أصحابها بالمعنى الذى قصد إليه بوفون ، وطالما ساءلت نفسي وأنا أقرأ كتب هؤلاء الكتاب الممتازين عن سبب المسرّات التى أدخلوها علىّ فى وحدتى واغترابى ، وعن سبب الحماسة العجيبة التى خلقتها أفكارهم المنبثّة فى كتبهم ، وعن سبب المحبة العميقة التى أثارتها دراستهم ، وعن الشعور الواضح العجيب بأنى عرفتهم واتصلت بهم قبل قراءة كتبهم حتى يكاد أحدهم يذكّرنى بنفسه لا يعرّفنى بها

ويكاد أحدهم يكتب ما امتلأت به روحى حتى أخجل عند العثور على بعض الأفكار الرائعة التى كانت كامنة فى ذهنى على صورة غامضة فأراها وأتعرف عليها جلية واضحة ، وقد تكون بنصّها الذى صغته ، وقالبها الذى أفرغتها فيه بينى وبين نفسى مما لا أجده عند كتّاب أو شعراء غيرهم ، وإنك تشعر أنك ترى بضاعة جديدة أو ثماراً لم ترها من قبل وإن كنت تتشوق إليها ، لأن الكاتب أدرك الشىء من ناحية جديدة وأضاف إلى المعرفة ثروة جديدة .

يكون الكاتب الممتاز من أولى الألباب كمن عاد من رحلة طويلة فى أرض بعيدة بكثير من خيرها وأخبارها لم يسبق للقارىء العادى أن زارها أو رآها ، وعلى كل ما جلبه منها لمحة الطرافة والجدة ، لأن الكاتب شهد وشاهد ثم كتب ، أى شهد بعين الإدراك الثانوى perception وأدرك الإدراراك الأعلى وأودع كتابه ما أودع مما رأى ، فمن المحتوم أن تشعر بالصدق والإخلاص والقوة والطرافة والجدة ، وهى الأمور التى لا تلمحها - دع عنك أنك لا تلمسها - عند المتصنع والمقلد والمفتعل مهما أجهد نفسه ، لأن الأول استقى ما كتب من نبع المعرفة وعين مائها وسلسبيل غدرانها فأطفأ الظمأ .

ولما كان الأشباه من هؤلاء الكتاب أولى الألباب لأنهم يرون ويشهدون ويشاهدون - يتفقون ويتحدون فى أقوالهم ، ولكن القسم

الأكـبـر من الناس ، لأن أكـثـر الناس لا يعلمـون ولايدركـون ولا يصدقون ولا يؤمنون ولا يفقهون ، لا يصدقـهم ، وهم معذورون لأنهم لا يرون مايراه أولو الألباب .

وتتبع طرافة أفكارهم طرافة أساليبهم وإن كانت أقل جمالاً من أساليب المزوّقين والمزيّنين وداهني الألوان والأصباغ البراقة ، فعليها دائماً سيما الحلاوة الفطرية والحسن الطبيعي الغير المجلوب، ولهم تعبيرهم وأصالة تركيبهم ومتانة الصلات بين أسلوبهم وموضوع كتابتهم لأنها صادرة عن إلهام الإدراك الثانوى Perception الغني بالفهم والخيال والتصوير فى ذهن الكاتب قبل أن ينقله إلى ذهن القارىء مشبعاً بعناصره ، فترى هناك فى تلك الصفحات الخالدات عرائس اللغة متجلية متحلية بحليّها الفطرى وبساطتها الطبيعية بغير تكلف ولا اجتلاب ، كأسلوب روسو وطلاوة التصاوير اللفظية فى أسلوب جوته وقوة تأثير التشبيه فى صحف رينان وشكسبير وشوبنهاور وإسهاب البيان بغير تكلف ولا إضجار، وترى هذه الصفات كلها ماثلة فى كتابه ذوى العقول الكبيرة وكلها غائبة غيبة منقطعة بغير أمل عن صفحات المقلدين والمستصنعين من أرباب الألفاظ الذين لم تخلع عليهم الطبيعة غير الفهم الأولى Con-ception، وهؤلاء يتميزون عن السادة والأئمة بالأساليب الفاترة والتعابير المبتذلة التى يحشدون لها صفوف الكلمات المتراصة الجوفاء المائتة والتصاوير الآفنة المتعفّنة المطروقة وعندهم من هذه

البضاعة الشيء الكثير ، فلا يسمحون لأنفسهم أن يتعدَّوها أو يخرجوا منَ باب غرفتها التى قطنوها وقضوا أيامهم ولياليها بين جدرانها فى أحضان المعاجم والقواميس والألفاظ الكتابية وتراث الموتى من الأسلاف ، وقد رضوا لأنفسهم بهذا السجن خشية أن يفتضحوا إن هم برزوا وأطلقوا لأقلامهم العنان وتطلعوا إلى الطبيعة الفطرية ليغترفوا من بحرها الفياض ، وإنْ فعلوا ظهر ابتذالهم وفراغهم وفاقتهم العقلية، فيكتفون بالتعمل والتصنع حتى فى زمان غير أزمنة الذين يقلدونهم ويقتدون بهم ويسطون على تراثهم ، وقد كتب شارلز ديكنز فصلاً طريفاً فى وصف هؤلاء العاكفين على المجلدات الضخمة فى مكتبة المتحف البريطانى ينبشون قبور الموتى ويسرقون أكفانهم وثيابهم وحليّهم.

ومن هؤلاء واحد بين الأحياء يعيش على رمم الموتى ويكتب فى الدفاع عن البلاغة [1] فيقول « أثبتنا بحجة العقل ودليل الوجدان أن التأنق فى الأسلوب أصل فى طباع الإنسان (؟ !!) وسر فى كيان اللغة (؟ !!) وركن من أساس البلاغة ، وأن الجمال اللفظى المطبوع منية كل لسان ينطق وبغية كل أذن تعى (؟ !) فالناس خاصتهم وعامتهم يحبون أن يسمعوه ، والكتّاب قادتهم وساقتهم يتمنون أن يستطيعوه ، وإذا كان فى حملة القلم من يقدح فيه وينفر

---

(١) يقصد المؤلف أحمد حسن الزيات فى كتابه « دفاع عن البلاغة».

منه كان ذلك من باب الكذب على النفس مردّه إلى أسباب يعرف بعضها ذلك الثعلب الفاضل :

رأى عنقوداً فلمـــا أبصر العنقود طالــــــه

قال : هذا حامض لما رأى أن لا ينالـــــــه »

وهذا الكلام ينم عن صاحبه الذى ينطبق عليه الوصف السابق ولا نحاول نقده لأنه معذور باستخفائه وراء هذه الألفاظ ، ومن هذا القبيل فى الشعر قول شاعر يدعى الغموض والإبهام ويسبح فى أمواجهما القاتمة يصف زائرة :

لو كنت ناصعة الجبيـــن هيهات تنفضنــى الزيـارة

ما روعة اللفظ المبيـــن السحر من وحى العبـــارة

ظلّ على وهج الحنيـــن رسمته معجــزة الإشـــارة

خط تساقط كالحزيـــن أرخى على العزم انكساره

إلى آخر هذا الهذر السخيف الذى لا يمليه إلا الغرور والعجز، إن لم يكن عـذره حـمّى فى الدمـــاغ وتصلب فى شــرايين المخ، والأعجب أن ناقداً قذف بهذه الكتلة الموزونة المقفاة فى وجه الناثر الأول الذى ذكرنا بضعة أسطر من « أسلوبه » فى فلسفة الأساليب، ليسأله إن كان يفهم من هذه الخطوط المنظومة شيئاً ٠ وعندنا أن الاستفتاء أشد وقعاً فى نفس المستَفْتَى بفتح التائين ، من توجيه

النقد إلى شخصه ، ونحن لانذكر أشخاصاً ولانحدد تاريخاً ولا نعين كتاباً أو مجلة أو صحيفة ، لأن هذا العيب بانفراده يعد عيباً عالمياً ودهرياً ودليلاً أبدياً على صدق ما قدمنا فى المقارنة بين النوعين من الكتاب والشعراء .

ومن هذا القبيل أيضاً الشعراء الذين انتحلوا المدح والوصف والهجاء والرثاء فى قصائدهم ولا سيما فى اللغة العربية عندما كان الشعر مصدر حياة الشاعر ، فقد اتخذوا أفكاراً تواطئوا عليها واستعاروها من أشعار قديمة وأضافوا إليها عواطف وأهواء وفضائل وأمجاداً تقليدية كالشجاعة والكرم والوفاء ولم يتجاوز الفهم فيها درجة الإدراك المجرد وألصقوها بأبطالهم الحيِّ منهم والميت وخلعوا عليهم ثياباً مهلهلة نسجوا خيوطها من تلك الاستعارة المعارة ، فأمسى هؤلاء الأبطال أشباحاً لشخصيات وهمية ودمى صامتة ساكنة لا تتحرك ، وانتهوا بأن صار النظر إليها مملا مضجراً ، ومدحهم ورثاؤهم ووصف مناقبهم فى غاية البواخ والإعياء للقارىء ، والأدب العربى - واسفاً - زاخر بهذا النوع من الشعر .

بيد أن المتنبى وإن يكن من المادحين والراثين والوصافين ، إلا أن أصالته ولباقته وطرافة عقله أنقذته من الغرق فى لُجّة أولئك،

وكذلك أبو تمام فى وصف مصرع الخليفة الذى شهده يقتل بيد ابنه وولى عهده ، والبحترى فى وصف إيوان كسرى وابن الرومى فى رثاء ولده .

وهذا التقسيم لا ينطبق على الكتابة الأدبية وحدها بل ينطبق أيضاً على الكتابة الفلسفية والتاريخية والعلمية ، ففى العلم الطبيعى تلقى بوفون وفى التاريخ نجد ابن خلدون وموسن (تاريخ رومه) وفى السياسة ماكيافيلى ، وفى القصص دوستيوفسكى وتورجنيف الروسيين وموبسان الفرنسى وستيفنسن الأيقوسى ، وفى الشعر غير من ذكرنا بيرون فى شعر منفاه ، ولانجد شيئاً من هذا فى فكتور هيجو نثراً وشعراً .

شكسبير:

وكل هؤلاء استقوا من المنبع الأصيل الأول ، والأعجب أنهم لم يكونوا فى حاجة إلى التعليم المنظم ، وهذه وحدها دليل قوى على تكذيب الذين انتقصوا فضل شكسبير وحسدوه وسافر بهم حسده والحقد عليه أسفاراً بعيدة المدى فجحدوه وأنكروا فنه وحاولوا سلبه آثاره مدعين كذباً وميناً أن أعماله وضعها غيره . كما قال أسلافهم إن إلياذة هوميروس ليست له ، وقد تخبط أعداء شكسبير فنسبوا مؤلفاته إلى فرنسيس بيكون ثم إلى ستانلى فيكونت دربى ثم إلى

روجير مانرز فيكونت روتلاند ثم إلى لفيف من الأعيان على رأسهم إسكس لعدواتهم الملكة البتول إليزابات...

ومن هؤلاء المنكرين عشرات فى إنجلترا وفرنسا من الشعراء وأساتذة الجامعات ، وهذا استطراد ليس هنا مجاله ، ويكفى أن نجزم بعد درس واقتناع أن الرجل المسمّى ويليم شكسبير وليد ستراتفورد والدفين بها الذى عاش من ١٥٦٤ إلى ١٦١٦ وخلف ثلاث بنات وستاً وثلاثين قطعة تمثيلية ، هو صاحب تلك القطع ومؤلفها وناظمها وناثرها ومبتكرها ومبدعها سواء أكان قصاباً ابن قصاب أو حارس خيل على الأبواب أو ممثلاً وضيعاً أو سكيراً مدمناً أو متطفلا على موائد العظماء أو زير نساء يولد له الأطفال من نسوة ذوات بعول ، أم شحيحاً قاسياً فى اقتضاء ديونه ، أم سارق صيد أم قاطع طريق أم متشرداً فاراً من وجه العدالة (كل هذه قيلتْ فيه وأكثر منها !) أم أميّا لا يقرأ ولا يكتب، أم من المترددين على مكاتب الشرطة أم كان فيلسوفاً شاعراً نبيلاً، حاد الذهن ، واسع الصدر عميق الفكر ، شريف المحتد ، كريم الأرومة.

هذا الرجل هو صاحب هذه المؤلفات غير مدافع ولا منازع ولوكره جونسون وكولردج ودمبلون وبالون وهابيل ليفرانك وشركاؤهم ، ونحن فى صميم موضوعنا وإن يبدو عليه الاستطراد،

لأننا بصدد إثبات نظريتنا بالدفاع عن أحد هؤلاء الموهوبين من أولى الألباب من النوع الأعلى ، وقد ثبت لنا صحة هذا الرأى بعد درس المسألة درساً وافياً .

فعن هؤلاء النكرات من اللوردات والأعيان الذين وجدوا أنصاراً لم يحلموا بهم ، نقول أولاً ليس لأحدهم طوال حياته أثر علمى أو فنى أو أدبى ولم يؤثر عنهم أنهم نظموا أو نثروا أو ألفوا فى أصعب الفنون وهو التأليف الدرامى ، وكانوا يعيشون عيشة الفراغ والشباب والجدة ، وقد روى أن أحدهم وهب شكسبير مبلغ ألف جنيه اشترى به حصة فى ملعب ولم يثبت أن هذا العين المعطى لم يكن شريكاً ومساهماً فى الأرباح وهو المدعو لورد سوثمبتون (ويكفيه الثغر المعروف باسمه فى جنوب إنجلترا) ، وثانياً فإنه لم يكن فى القِطَع ما يمس شخص الملكة أو شرفها أو حقها فى العرش حتى يقال إن جماعة الأعيان من أعدائها تواروا وراء شكسبير للانتقام منها ، ولو كان فى تأليفه ما يؤاخذ عليه ، لما منعتها مكانته الوضيعة (على حدّ وصفهم) من عقابه وتعذيبه حتى يعترف على شركائه وبينهم لورد رالى وزيرها وقد غدرت به وشنقته لأسباب غرامية لا دخل للسياسة فيها ، أما فرنسيس بيكون وهو لورد ووزير فأمره ظاهر بمؤلفاته التى بين أيدينا ، والمقارنة بين أسلوبه فى كل ما كتب وهو لا يتجاوز ٥٠٠ صفحة فى الفلسفة والعلم والحكمة القديمة وبين أسلوب شكسبير فى قطعه

التمثيلية ، تقنع الأعمى والأصم والأبكم والمخبول فضلاً عن البصير والسامع والناطق والعاقل .

وفى العهد الأخير ظهر أمريكى محتال من المنجمين وقراء الملاحن argot والألغاز واللغات السرية يدعى مورجان يزعم أن بيكون هو إدوارد السادس المستحق للعرش فى عهد إليزابث وقد اختفى وراء شخص بيكون ونظم القطع المنسوبة إلى شكسبير ، ولا يبيّن « مورجان » دافعاً ولا علة ولا حكمة لهذه الدورة وينسى أنه لم يؤيد الانتحال وحده بل إنه أنكر شخصية تاريخية ثابتة وهى شخصية فرنسيس بيكون ، لأنه لو كان هو إدوارد السادس فأين بيكون ، ولو كان هو بيكون فأين إدوارد السادس ، وهل يمكن اختفاء شخص أمير مستحق للعرش فى شخص رجل حى وعالم معروف كان وزير العدل فى عهد ملكين أو ثلاثة .

ثم من يعقل أن تلك القطع يطيق واضعها الحقيقى أن يتبرأ منها أو يتبرم بها ، وإحداها (همليت) مفخرة عالمية ومأساة إنسانية تشرف كل من تنسب إليه .

وقد ثبت بالتاريخ أن شكسبير عاش فى بلاط الملكة إليزابيث مؤلفاً ومخرجاً وممثلاً كما عاش موليير وكورنى وراسين فى بلاط ملوك فرنسا ، وقد اقترحت إليزابث على شكسبير قطعة « زوجات وندزر المرحات » وأشرفت على تأليفها وتمثيلها فى أسبوعين أو ثلاثة .

وبالجملة فإن كل ما قيل أو كتب فى هذه المسألة مخالف للعقل والواقع ، ولذا وجب الانصراف عنه وتعليله بالحسد والحقد وعجز الجاحدين .

ابن خلدون :

نرجع إلى قولنا إن الكاتب من النوع الأعلى صاحب الفكر الإدراكى الثانوى perception يحتاج إلى مايحتاج إليه سواه .

فقد قال ابن خلدون عن نفسه مؤرخاً تدوين المقدمة الشهيرة فى آخر الكتاب الأول :

« أتممت هذا الجزء الأول بالوضع والتأليف قبل التنقيح والتهذيب فى مدة خمسة أشهر آخرها منتصف عام ٧٩٩ هـ ثم نقحته بعد ذلك وهذبته وألحقت به تواريخ الأمم كما ذكرت فى أوله وشرحته .. » ص ٥٥٨.

وقال أيضاً فى ج ٧ ص ٤٤٥ من تاريخه :

« وأكملت المقدمة على هذا النحو الغريب الذى اهتديت إليه فى تلك الخلوة (عند أولاد عريف فى قلعة ابن سلامة) فسالت فيها شآبيب الكلام والمعانى على الفكر ، حتى امتحضت زبدتها وتألفت نتاجها » .

وكان فى الخامسة والأربعين من عمره .

وفى هذا المجال يؤيدنا الأستاذ ساطع الحصرى فى درسه

مقدمة ابن خلدون (طبع دمشق سنة ١٩٤٣) يقول :

« فإننى عندما أتامل فيما كتبه ابن خلدون فى هذا الصدد أجزم بأن توصله إلى مجموعة الآراء المبتكرة الكثيرة المسطورة فى المقدمة ، إنما حدث من جراء تدفق فجائى بعد « حدس باطنى» و«واختمار لا شعورى » ، كما لاحظ ذلك بعض علماء النفس فى حياة عدد غير قليل من المفكرين والفنانين فى تاريخ عدد غير يسير من الابتكارات والاكتشافات - ذلك النوع من التدفق الفجائى الذى يحمل المفكر على التعجب من نتائج تفكيره ويوصله أحياناً إلى النظر إليها على أنها آراء إلهامية تصدر عن قدرة خارجة عن نفسه كأنها تلقى إليه إلقاء » .

وقال ابن خلدون :

« أطلعنا الله عليه من غير تعليم أرسطو ولا إفادة موبذان »، أى لم يفد شيئاً من فلسفة اليونان ولا حكمة الفرس وهما المصدران المقصودان فى عصره - قال الحصرى :

« وعندما كتب ابن خلدون ونحن ألهمنا الله إلى ذلك إلهاماً وسالت فيها شآبيب الكلام والمعانى على الفكر ، لم يكن مسترسلا فى طريق التشبيه والمجاز ولا مستسلماً لتداعى الكلمات والتراكيب، بل كان معبراً تعبيراً صحيحاً عما كان يشعر به فى قرارة نفسه فعلا من جراء طرافة الآراء التى قد توصل إليها بصورة تكاد تكون فجائية ، إننى لا أرى فى هذه المسألة ما يبرر

الشك فى صدق ابن خلدون ، إننى ألمح فى العبارات التى ذكرتها آنفا آثار التحيّر والتعجب أكثر مما أجد فيها أداء التمدح والتفاخر » انتهى كلام الحصرى .

إننا نجد فى ابن خلدون مثلاً ناطقاً لهؤلاء الكتاب الممتازين من الطراز الأول ومن أولى الألباب الذين استقوا من النبع الأول الصافى ، ولذا كان عمله تجديدا وتأسيسا وإبداعا ، فقد وضع علم الاجتماع « سوسيولوجيا » الذى نسبه الإفرنج لأوجست كومت صاحب الفلسفة الوضعية ، وهذا غير صحيح لأن بينهما ستماية عام ، فإن ابن خلدون من أهل القرن الثامن الهجرى وبين الهجرى والعيسوى ستة قرون ، فكان ابن خلدون فى القرن الرابع عشر الميلادى وأوجست كومت فى التاسع عشر ، وفى عصر كومت كانت مقدمة ابن خلدون منقولة إلى لغتين أو ثلاث لغات أوربية .

وكل ما ذكرنا من صفات الكاتب النابغ وأسلوبه فى الأدب أو التاريخ أو الأسلوب - ينطبق على ابن خلدون ، وقد زادنا علماً وأيده شارحه ودارسه (الحصرى) بأنه إلهام من الله ، ووحى تلقاه وغيث عقلى انهمر عليه وشآبيب أمطرته وأنه لم يكن فى حاجة إلى فلسفة أرسطو أو حكمة موبذان .

ويتبرأ ابن خلدون من أرسطو فى القرن الرابع عشر المسيحى (الثامن الهجرى) وهو يعلم يقيناً بحكم المواطنة والشهرة أن ابن رشد عاش فى قرطبه فى القرن الثانى عشر أى

قبله بقرنين وشرح أرسطو ثلاثة شروح ولقى ما لقى من العنت فى سبيل الفلسفة ، ولكن ابن خلدون كان ذا حظ عظيم لأنه لم يقرأ ابن رشد ولو قرأه لأضره أكثر ، لأن ابن خلدون بفطرته من فريق أفلاطون فى الفكر والعقل والنزعة ، وأرسطو يفسد الفطرة الطيبة ويعطل المواهب الفياضة ويمرقل سعى الروح للمَعرفة ويعطل سير كواكب المواهب ويخل بحركة الفلك الذهنى بتصنّعه وافتعاله وتعقيده وأغاليطه وسلاسل منطقه وقيود مداخله ومخارجه ، فلا يأسف أحباب الحكمة على أن ابن خلدون نجا من علم أرسطو وحكمة موبذان ، أى كان عبقرية عربية مغربية صافية نقية .

وهو لا ينكر أنه قرأ كتباً لابن العربى الحاتمى (ص ٣٤٠) ووقف بمصر على تآليف متعددة لرجل من عظماء هراة (ص ٤٨١) ولكنه استقى معارفه بطريقة مباشرة عن المشاهدة والنظر والتجربة الذاتية ، مكتفيا بما تعلمه وتلقاه عن طبيعة الأشياء ودرس أحوال الأمم وفلسفة التاريخ عن كثب ، أى أنه كان من الذين وصلوا إلى الإدراك الثانوى perception ولم يأبهوا للإدراك الأولىConception، قال ص ٣٢ :

« لاختصاص قصدى فى التأليف بالمغرب وأحواله وأجياله وأممه وذكر ممالكه ودوله دون ما سواه من الأقطار لعدم اطلاعى على أحوال المشرق وأممه » .

وفى ص ٤٠١ :

« كما بلغنا عن أهل مصر أن منهم من يعلم الطيور العجم والحمر الأنسية ، وغير ذلك من الصنائع التى لاتوجد عندنا بالمغرب » .

وفى ص ٢٩٤ من المقدمة بعنوان « إن الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع » :

« فإن من أدرك مثلا أباه وأكثر أهل بيته يلبسون الحرير والديباج ويتحلون بالذهب فى السلاح والمراكب (أى المطايا) ويحتجبون عن الناس فى المجالس والصلوات ، فلا يمكنه مخالفة سلفه فى ذلك إلى الخشونة فى اللباس والزى والاختلاط بالناس، إذ العوائد حينئذ تمنعه وتقبح عليه مرتكبه ولو فعله لرمى بالجنون والوسواس فى الخروج عن العوائد دفعة ، وخشى عليه عائدة ذلك وعاقبته فى سلطانه » .

جمهورية أفلاطون :

واسمْع الآن إلى نبذة تشبهها تمام الشبه فى وصف الدولة الديموقراطية فى جمهورية أفلاطون فى الكتاب الثامن عن الحكومات الدنيا ص ٢١٦ تعريب حنا خباز طبع المقتطف سنة ١٩٢٩:

« إن الديمقراطى عنيد ، غير محب للآداب يسمع الخطباء وليس بخطيب ، يحتقر الرقيق ويقسو فى معاملته ، يتلطف

بالأحرار ويخضع للقضاة ومولع بالشهرة والمديح ولا يتطلبهما بالخطابة والحرب والسياسة لأنه يقف حياته على الرياضة البدنية واللهو ، يزدرى الثروة فى صباه ثم يتعلق بها فى كبره ويزداد لها حباً لأنه فى اتصال دائم بطبيعة محبى المال ، وسجيته غير سليمة من الوصمة لأنه اعتزل البحث العقلى الممتزج بالفلسفة ، وهو وحده بوجوده واستمراره يقى صاحبه ويمكنه من الفضيلة مدى الحياة . هذا هو خلق الديمقراطى الذى يمثل الديموقراطية ويمكن تعقب أصله على الصورة الآتية ، إنه ابن رجل فاضل ولا يبعد أنه سكن مدينة ساء نظامها فتجنب الرفعة والمناصب والتقاضى وأمثال التقاضى من أنواع النزاع مما يلابس الروح المتمرد ، مؤثراً الخسارة على المشاغبة .

– صف لى تكوّن خلق كهذا .

– يؤرخ ذلك منذ إصغاء الشاب لوالدته تتذمر من تنكب زوجها عن مناصب الحكومة فصيّرها بذلك وضيعة القدر بين أترابها ، ومن أنه لم تره يعبأ كثيراً بالمال ولم يزاحم أحداً ولم يناضل أحداً فى ساحات القضاء والمجامع المدنية لأنه يزدرى هذه الأمور ، وكانت تلوح عليه أمارات التفكر ولم يوجه نحو امرأته اعتباراً كبيراً مع أنه لايحتقرها ، فإذ تمتلىء الزوجة حنقا على هذا كله تقول لولدها : إن أباه ليس رجلاً وأنه كثير الإهمال والتراخي وأمثال ذلك من الأقوال التى اعتادت الزوجات أن تفوه

بها لإعابة أزواجهن . وخادماته المكترثات لصالح سيدهن يتلون أحياناً عبارات من هذا النوع على مسمع ولده ، فإذا رأين أحد مدينى والده أو ممن أساؤا إليه بشىء ولم يصدر بحقهم قرار محكمة ، فإنهم يحرِّضن الولد متى بلغ سن الرشد على الانتقام من أناس كهؤلاء فيكون أكثر رجولةً من أبيه ، وحين يخرج الشاب إلى الخارج تطرق سمعه وبصره أشياء كهذه من الآخرين ، منها أن المسالمين العاكفين على أعمالهم الخاصة فى المدينة يدعون سذجاً وهم قليلو الاعتبار ، والذين يكثرون التدخل فى شؤون الغير هم مكرمون ومحترمون ، فإذ يسمع الولد ويرى كل ذلك ويقارن بينه وبين ما كان يسمعه من والده وهو قلما وفِّق فى فحص مسالك الآخرين ، فحينذاك يصير بين قوتين تتجاذبانه إلى جهتين متضادتين من الجهة الواحدة ، والده يغذى القسم العقلى فيه ويسقيه ، ومن الجهة الأخرى الناس يغذّون العنصر العصبى والشهوى فى طبيعته ويسقونه ، ومع أنه ليس شاباً ردياً فبلغ بتأثير العوامل المتضادة فيه نقطة متوسطة بين القوتين وسلم زمام الحكم فى داخله للعنصر المتوسط فيه الحاد المزاج المشاغب فصار نزقا ذا حدة وأطماع » أهـ .

وعلى الرغم من رداءة هذا التعريب وقصور تعبيره ومع القدرة على تعريبه بأفضل وأبين من هذا النص ، فقد أبقينا عليه منسوباً إلى صاحبه انتقاماً من أنفسنا لتأخرنا عن خدمة أفلاطون

وتسجيلاً لفضل هذا المعرب الذى اقتحم هذا المنجم الكريم الغنى بتبره وتحمل المشقة فى نقله إلى العربية ، وهو على كل حال لا يضيع المعانى على ركاكته وتفككه ، وليس المقصود هنا الإشادة بالجمهورية ولكن المقصود به التدليل على أن ابن خلدون حين كتب النبذة السابقة عن الشاب الأرستوقراطى كان مستقياً من نبع الحقيقة الذى سبق إلى الاستقاء منه بعشرات القرون أفلاطون الإلهى ، وكل منهما فى بلد وبيئة وتعليم وعقيدة تخالفها عند الآخر، ومع هذه الفروق الشاسعة فى أخلاق الرجلين ، فقد التقى العقلان فى طريقة وأسلوب واحد وخطة واحدة ، لأن طريقة الفهم والإدراك عندهما واحدة .

وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه فى أول هذا الفصل ، فكان ابن خلدون من أتباع أفلاطون الراشدين المخلصين دون أن يراه أو يعرفه أو يتتلمذ عليه ، ومع أن الجمهورية لم تنقل إلى العربية ، لا فى زمن المأمون ولا غيره ، وربما سمع ابن خلدون بآراء أهل المدينة الفاضلة وهى من نقل الفارابى ولكنها لا تمتّ إلى الجمهورية بصلة وليست شبحاً لها ولا نافذة من نوافذ بيوتها .

- ٢ -
الخطابـــة

النثر والشعر والخطابة :

النثر والشعر ارتجالاً وكتابة هما الصناعتان اللتان يدلان على أسلوب الكاتب والناظم ، وهناك الخطابة الصنعة الثالثة وهى فى المقام الأول بالنسبة للصناعتين ، بل هى الصنعة الرئيسة ، والسيدة والمتمايزة عليها للأسباب التى يدركها العقل بطبيعتها ويقول بها أساتذة فنون الكلام ، فإن الخطباء أندر من الكتاب والشعراء ، ونحن بالطبع لانقصد إلا إلى فحولهم وسادتهم وعباقرتهم فى كل العصور وكل الأمم ، وهم الذين كان لهم أكبر الأثر فى شعوبهم وبقيت أسماؤهم مضيئة براقة ونبذ من خطبهم محفوظة فى الذاكرة أو مسجلة فى بطون الكتب نقلا عمن التقفوها من أفواههم وتلقّوها عنهم كما تتلقى الدرارى اليتيمة واللآلى النادرة، ونحن إذا ذكرنا هؤلاء إنما نذكر الذين اشتهروا وحازوا المجد وكان لخطابتهم أثر فعّال فى حياة الأمم أمثال ديموستين اليونانى وشيشرون الرومانى وبوسويه الفرنسى ولينين الروسى وبعض مشاهير الخطباء من الألمان والطليان والإنجليز .

وغير خاف عن القارىء أن الحياة الأوربية قديماً وحديثاً قد هيّأت الفرصة لظهور هؤلاء الخطباء ، فقد كانت لديهم حياة

سياسية حافلة بالمجالس ، وحياة قضائية حاشدة بالمحاكم ، وفى المحكمة وفى مجلس الأمة منابر الفصاحة والخطابة ومعرض البلاغة والابانه ، ثم مسارح التمثيل التى تطلق ألسنة الممثلين من عقالها فتصبح هى الأخرى منابر يعتليها المؤلفون فى أشخاص الممثلين ، يلقون على جماهير النظارة والمستمعين ماشاءوا من ثمار قرائحهم في صورة حوار هادىء وملتهب وتعبير عن أهواء النفس ورغائبها وأفراحها وأحقادها وخفاياها .

فهذه الصناعات الثلاثة التى نمت وتغذّت وترعرعت فى الحضارة (السياسة والمحاماة « الدفاع عن المتهمين » والتأليف التمثيلى) قامت كلها على الفصاحة الشخصية وقوة الإقناع وحيازة القبول لدى الجماهير ، وهى وإن لم تطغ على النثر والشعر المكتوبين ، إلا أنها ازدهرت وتقوّت وجعلت الكتابة والشعر من توابعها ، وإن يكن بعض الخطباء بحاجة إلى الكتابة والتدوين والاستعداد والتأهب لما يقولون ، إلا أن الأثر الأعظم لا يكون لقراءة ما يكتبون ، إنما لإلقاء مايعون ، وللجزء من أنفسهم الذى ينقلونه إلى سامعيهم ، وإلى التيار الروحى الذى يتصل ويسرى بينهم وبين أذهان جمهورهم ، وكثيراً ما ينتوى الخطيب المصقع المطبوع أن يتلو ما أعدّه كتابة ، ويسرد من الورق المكتوب ما دبّجته يراعته ، فلا يلبث أن يرى القوم واستعدادهم بسماعه وتحفزهم للاتصال به حتى ينسى ما أعده أو يتناساه وينطلق فى

ارتجاله فيجيد ويتفوق ويزدرى ما كتبه ويدهش من أنه لم يترك نفسه لإلهام الساعة .

ولما كانت اللغة العربية من أفصح اللغات الحية وأبلغها ، ومن اللغات التى نبغ فيها الخطباء فى العصر السابق للإسلام بسبب الأمية التى كانت متحكمة ، وزادها الدين احتياجاً للخطابة على منابر المساجد وكراسى الحكمة ، بعد أن أقاموا الأسواق كعكاظ للمسابقة بين الشعراء والخطباء ، وانتدب المؤلفون أنفسهم لتسجيل تلك المواهب كما فعل الجاحظ وأبو البقاء وابن خلدون وعبدالرحمن الأبجى والغزالى (آداب المناظرة) وابن العسكرى وهم ممن سجلوا الخطب والمواعظ وجوامع الكلمة ، فليس من المعقول أو المقبول أن نبدأ بدرس الخطابة عند اليونان والرومان قبل أن ندرسها عند العرب وهم أقرب إلينا نسباً وجواراً ولغة من اليونان والرومان .

وليس معنى هذا القول أننا فى هذا المجال نوازى بين الصناعتين عند العرب والإفرنج ولانعارض بينهما ونفضل الخطابة العربية على الخطابة الإفرنجية تعصباً أو حنينا ، فإن لكل منهما محاسنها وميادينها ، ولكل خطيب على حدة مواهبه وقدرته وقوة تأثيره وطريقته وفنه ، فكل الخطباء العظماء أقرب إلى بعضهم بعضا ، وإن اختلفت أوطانهم .

الخطابة بين الموهبة والتقليد :

وإن تكن موهبة الخطابة قد وقعت فى أيدى الكتاب ومدعى العلم الذين أخضعوها لقوانين ونظم وقواعد كما فعل أصحاب العروض والمؤلفون في البلاغة ، إلا أننا واثقون أن هذه القوانين والقواعد كلها موضوعة ومصطنعة ومفتعلة ، فالخطيب العبقرى لايخضع لشيء منها ، وإن صح أن لها قواعد وقوانين فهذه القواعد والقوانين مستنبطة من خطابة العظماء ، فما يصنعونه يجعل ويقعّد القواعد ويؤسسها فينظمها المؤلفون ويرتبونها ويرتبون عليها آراءهم ليدرسها الناس أو خطباء الدرجة الثانية وهؤلاء لاقدر لهم، فإن هذه الصناعة إن لم تكن من الدرجة الأولى فلا يؤبه لها ولا يحسب لها حساب ، وقد يمكنك أن تقول إنه كاتب من الدرجة الثانية أو شويعر أو شعرور ولكن صيغة التصغير أو التحقير لايمكن انطباقها على الخطيب أبداً ، فإن الخطابة كالطير المحلق الذى يهبط إلى طبقات الجو القريبة من المستمعين فيرى ويسمع ويستوعب ثم يحلق ثانية بعد أن يترك فى الآذان والأذهان أثراً لايمحى ، ولكنك تقرأ الكتابة أو القصيدة فتعجب بها ثم تنساها ، ولكنك يندر أن تنسى التيار الروحى القوى الذي تركه الخطيب في نفسك.

وإن هذا الأثر أو بعضه لا يتركه في نفوس سامعيها الخطيب المقلد، بل إنه لخليق أن ينفرك مما يدعوك إليه ويبغضك فيما

يحاول أن يحببك إياه على الرغم منه، وهذا بسبب ازدرائك له واكتشاف حقيقته بين يديك فيقضى على البقية الباقية من ميلك إلى الرأي الذي يدعو إليه إن كان مدحاً أو ذماً أو تحريضاً وحثا أو تشجيعاً علي حرب أو ركوناً إلى سلم ومصالحة ، وعلى نقيضه يكون الخطيب العبقرى الموهوب، فإنه لا يضمن أن تنضم إلى صفه وتشايع رأيه وتندفع في استحسان ما يستحسن وتنكر ما ينكر، بل إنه لخليق أن يقلب رأيك رأسا على عقب ويحول تيار أفكارك تحويلا شديداً فيجعلك تحب ما كنت تبغض وتبغض ما كنت تحب، ولا تدهش أنت من هذا التحول ولا ترى عيبا لنفسك ، بل ترى أنك كنت ضالا فهداك وجاهلا فعلمك ومعوجا فقومك وغافلا فنبهك، فكل ما يجئ به يكون مقبولاً لديك ومحبوباً عندك .

وقد شوهدت هذه المثل مشاهدة فعلية محسوسة في كل العصور والأماكن حتى قد يوصف الخطيب بأنه ساحر، ويسلم إليه زمام أمور الأمم، فإن انبهارهم بموهبته في الفصاحه يقنعهم بأنه أقدر الحكام وأفضلهم ، وهذا ما وقع لبارنيل الأيرلندى وجلادستون الإنجليزى وهتلر الألمانى وموسولينى الإيطالى.

وقد كان للخطابة هذا الاثر العظيم حتى أخلده مؤلفو الدرامه كما فعل ويليم شكسبير في مسرحية يوليوس قيصر عندما أثبت خطبة مارك أنطونى التي حول بها تيار الفكر الرومانى من مشايعة قتلة قيصر إلى معاداتهم والحمل عليهم ومطاردتهم ونفيهم من

الوطن .

وشيء من هذا كله أو بعضه لا يحدث بفعل الخطيب المقلد مهما صعد أو هبط أو ضرب صدره بيده أو شج رأسه بقصد التأثير فى سامعيه ، فإن فعله ينقلب إلى الإضحاك والسخرية .

وان إخفاق التقليد ثابت فى كل الفنون ، إلا فى صنف واحد وهو المهزلة التمثيلية ، فإن تقليد الشخصيات هناك يضحك المستمعين ولايفيدهم.

وإن بعض الشعراء والكتاب مقلدون نسخوا صوراً خيالية فى كل ما نظموا (كما قال أفلاطون فى الجمهورية فى الكتاب العاشر) ، ومن جملة ذلك نظمهم فى الفضيلة فلم يلمسوا الحقيقة ، ومثلهم كالمصور الذى يصوّر شيئاً من صناعة الأحذية (هذا مثل ضربه أفلاطون الإلهى) تصويراً يحمل الجهلاء وأمثاله على الظن أنه إسكاف لأنهم يحصرون نظرهم فى الأشكال والألوان ، فعلى الطريقة نفسها نرى الشاعر المقلد كالمصور يضع طائفة من الألوان فى شكل أفعال وأسماء ليمثل حرفاً لا يعرف منها إلا ما يمكنه من تقليدها ، فإذا قرض الشعر وزناً وقافية واتساقا واصفاً به القيادة فى الحروب أو أى موضوع آخر ، أعجب به السامعون أو القارئون لاعتمادهم فى أحكامهم صورة البيان ، فيذكر الإنسان الهيئة الذابلة الظاهرة فى محيّا من كانوا فيما سبق ذوى رونق من غير أن يكونوا ذوى جمال بعد أن فارقهم رونقهم ، فالمقلد

حسب الرأى السائد يدْرك الظاهر دون الحقيقة ، فالمصور يصور السرج واللجم والعنان والرسن دون أن يفهمها لأن الذى يفهمها هو السروجى والحداد لأنه هو الذى يصنعها ، ففى كل شيء ثلاثة فنون خاصة مجال الفن ، الأول استعماله والثانى صنعه والثالث تقليده ، وإن الفارس يخبر السروجى والحداد كيف يصنعان آلات الفرس ، والنافخ فى الناى يخبر صانعه عن الناى الذى يستعمله فى فنه ويرشده إلى كيفية صنعه ، فيخضع لإرشاده فى صنعها ، لأن الفارس والنافخ فى الناى يعرفان أداة الفروسية والناى معرفة تامة جيدة ، ويجودان على صانعيها بإرشادهم فيطيعون ، لأن للفارس ونافخ الناى دراية تامة والصانع ملزم بالإصغاء إلى إرشادهما ، ومن يستعمل الشيء عنده العلم الصحيح به ، فأى الأمرين يملك المقلد ؟ ليس لديه العلم ولا الرأى فيما يقلده ، فالشاعر المقلد والخطيب المقلد يسير كل منهما فى تقليده بالرغم من جهله مايقوم به جمال الشيء أو دمامته ، ونفعه أو ضرره ، وخيره أو شره ، ولكنه حسب الظاهر يقلّد أوصاف الجمال والنفع والخير المبهمة الغامضة الرائجة عند جمهور الأميين ، ولهذا لا يكون له أى أثر فعال عند أهل الفكر ، بل إن إلهاماً مستوراً خفياً يؤثر فى أذهان الجهلاء والأميين أنفسهم فيتبيّنوا سخافة الخطيب المقلد، ولايجدون ما يجذبهم إليه أو يدفعهم إلى طاعته أو الانقياد إليه، بينما يخضعون رغم أنفسهم للخطيب الحق ويطيعونه ويثقون به ٠

عبد الله نديم خطيب الثورة المصرية :

ولتصديق هذا القانون وهو أن الخطيب يولد ولا يصنع ، وأنه يتجه رغم إرادته نحو الخير العام ونحو استكمال مواهبه وإظهارها سواء أكان في العصور القديمة أم الحديثة ، وسواء أكان في الشرق أم في الغرب ، وسواء أكانت نشأته جليلة القدر أم متواضعة مستكينة ، نستشهد برجل لم ينسه العالم العربي والشرق العثماني وهو المرحوم عبد الله نديم خطيب الثورة المصرية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر في عهد الخديوين إسماعيل وتوفيق وعباس .

ولم يكن عبد الله نديم من أسرة عريقة في المجد أو الجاه مما يسهل للأبناء والأحفاد أن يتعلموا ليشقوا لأنفسهم طريق الحياة والمجد ، بل كان أشبه الناس بأيشين الخطيب الأثيني المعاصر لفيليب ملك مقدونيا ولديموستين خطيب اليونان الأشهر في منبته وبيئته ومواهبه واشتغاله بالتعليم في أول أمره ، وكانت الظروف معاكسة فلا حسب ولا نسب ، بل ولا القوت الضروري الذي يمكن الفتى من أن يجد له الفراغ لتثقيف نفسه .

ومما يستدعي الإعجاب والتسليم بصحة القانون الذي شرحْناه أن بذرة طرحت حيثما اتفق فمدّت جذورها بنفسها تجدّ في حصولها على غذائها وقد تجده أو لا تجده وتعاندها الطبيعة فتكافحها وتتغلب عليها ثم هي آخر الأمر تكون أينع ما كانت

شجرة وأضخمها وأوفرها ثمراً ، هكذا كانت نشأة عبد الله نديم ومنبته .

فقد كان أبوه « مصباح » نجاراً ثم فرانا أرسل في الإسكندرية ولده عبد الله إلى الكتاب ليفك الخط ويحفظ ما تيّسر من آى القرآن الكريم ، ثم واصل الصبى تعليمه فى مدرسة ملحقة بمسجد ، ثم مال إلى الأدب وعزف عن معاونة أبيه في المخبز ، فطرده أبوه لشدة الفقر ومخالفة الفتى خطة والده ، فهام عبد الله على وجهه وأخذ يغشى مجالس العلماء والأدباء ويرتزق حيثما اتفق وهو يعلم من غير وعى أن هذه هى طريقه وخطته ومدرسته ، وقد منح حافظة لاقطة وذاكرة مختزنة وخيالاً فسيحاً قوياً وقدرة على التقليد والمحاكاة ونفساً منطوية على موازين الشعر وأقيسة المنطق.

ولما كانت نشأته فى صميم الأحياء البلدية (كرموز وزاوية الأعرج وبحرى والأنفوشى) مع رهافة حسه ويقظة نفسه وفقره، علمته أن يحيط عفواً إحاطة واسعة بلغة الشعب وأدبه من أمثال وأغان وقصص وأساطير ووجوه معاملات وصنوف تصرفات ، وهذا الإعداد هو إعداد الطبيعة له وتيسيره بغير عسر لما خلق له ، فإنه تخرج من جامعة الحياة وهى أنفع وأغنى من كل الجامعات ، نعم لا شهادة لها ولكنها تخلع على صاحبها ثوب الحياة وتخرجه تخريجاً كاملاً تظهر قيمته فى المعترك وتبين فضله فى النضال

والكفاح ، من صبر وفهم وقدرة تحمّل ، ذلك اليوم الحق يقلّب فيه خريج تلك الجامعة الحافلة بالعجائب كتاب الحياة صفحة فصفحة ويبدى من ثمار التجاريب ما لا يستطيعه سواه ، وقد تمكنت الحياة والألم - وهما أعظم أساتذة الدنيا - من تكوين نفس عبدالله نديم تلك النفس الحساسة الفنانة بفطرتها فعوّدتها على أن تختزن حتى حفيف أوراق الأشجار وهفهفة الأغصان ودبيب النمال وحلاوة الأنغام ودربتها على إدراك معانى البسمات والعبوس وأدق معانى الجمال والدمامة ، ثم علمتها كيف تنتفع بهذه كلها فى فنونها متى آن أوانها .

ثم تعلم عبد الله نديم الدق على أدوات البرق فصار تلغرافياً موظفاً ، وانتقل إلى القاهرة عاصمة الملك واتصل بالأندية الأدبية والتقى بالشعراء والكتاب والخطباء وكبار الأعيان ، فشرب نديم من منهلهم وارتوى من ينابيعهم وانصقل بمعاشرة تلك السيوف اليمانية ، وتهذب وترفق وتأنق فى غير عناء ولا مكابدة ، ثم رحل إلى الريف واشتغل بتعليم أبناء الأعيان ، وحدث شجار بينه وبين بعضهم فغلى مرجل الأديب الطريد ثم انفجر فى هجاء منظوم ومنثور ، فكان ذلك بمثابة انفجار البركان ، فعرف نديم نفسه أديباً وعرفه من حوله لَسِناً يملك ناصية القول فى المدح والذم ، وعرفه سرىّ كريم فمنحه مالاً يكفى للاتجار فى اللوازم الصغرى كالمناديل والجوارب والعطور ، فجعل من دكانه نادياً لأصحابه

الأدباء وضاع رأسماله فى بضعة أشهر ، وعلى الرغم من تقلّب الحياة به وتغيير الأوضاع ، كانت نفسه تستعد وتذخر وتتأهب ، وهذا هو الجانب الأهم .

وفى سنة ١٢٩٤ هـ اتصل بأحد الباشاوات (شاهين كنج) فأعجب به وأعانه وقربه وأطلق عليه لقب (نديم) ، وهو لقب لطيف محبوب خفيف اللفظ والمعنى حسن الأثر ملطفا بعض الشيء من دمامة صاحبه دمامة تجعله إلى سقراط أقرب من غيره ، تلك الدمامة التى لولا خفة روحه لما جعلته مقبولا فى المجالس والمحافل، وكانت هذه الدمامة الخلقية تغيظه لانطباع نفسه على حب الجمال والتماسه فى وجوه النساء والرجال والحيوان والنبات والمبانى والحدائق ، فدل بذلك على أن دمامة الوجه كانت له بمثابة قناع يخفى وراءه روحاً جميلاً وخلقاً لا يقل جمالاً عن الروح ، ومثل هذا الرجل لا يعرف للمال قدراً ولا يحسب حساباً للدرهم والدينار.

وبعد هذه السياحة الكبرى فى قصور القاهرة ودوائر الأرياف عاد إلى الإسكندرية مسقط رأسه ، فوجد المجالس تتحدّث فى السياسة ونقد إسماعيل لإسرافه وفى الدول الأجنبية وتدخلها فى شؤون مصر ، ووجد جمعية سرية باسم مصر الفتاة وقد تطور الحديث فى الأدب وصار حديثاً فى حالة الأمة ومصالحها فى حاضرها ومستقبلها ، وكان جمال الدين الأفغانى قد حول تيار الأفكار من الكلام فى الشعر والغزل إلى السياسة والانقلاب ، وهذه

نقطة التحول فى حياة عبد الله نديم ، فقد قطع علاقته بماضيه وأدبه الشعبى ونسخت أية الوطنية آيات الفن الرقيق ، وبدأ نديم يكتب فى الأمة والوطن والحرية والسياسة بأسلوب متدفق سريع مرسل لا يقيده السجع ولا تحلّيه المحسنات اللفظية ، وهذا يدل على قدرة التمييز عنده ، فاتجه نحو القول النافع بعد القول الجميل، واتسقت مواهبه وانسجمت مع حركات نفسه المتحمسة الثائرة .

وأسس جمعية خيرية وأنشأ مدرسة حرة تعلم الناشئين تعليماً حراً وتبث فيهم روح الوطنية والشعور القومى ، وألقى فى افتتاح المدرسة خطبة رنّانة دوّى صداها فى الإسكندرية ، وأخذ نديم يمرّن الطلاب على الخطابة والتمثيل فكان ينتهز كل فرصة لإقامة الحفلات يخطب فيها ويمرن الفتيان على أن ينشئوا الخطب بأنفسهم ويرشدهم ، فأنشأ بهذه الخطة نخبة يحسنون التحرير ويحسنون القول ويعد جيلا يخلف جيله وطنيةً وإقداماً وشجاعة وأدباً كما فعل كبار الحكماء والخطباء الأقدمين ، ثم خرج إلى ميدان الحياة العامة يخطب فى المحافل ويؤلف الكتب ويبعث بمقالاته للصحف والمجلات ، ثم أنشأ صحيفة « التنكيت والتبكيت» لتقويم الأخلاق ونقد المعايب وتحسين الفضائل وقصده أن يؤنب المصريين على ما وصلوا إليه فى أسلوب لاذع ساخر ، وهذه خطة سليمة هداه إليها الطبع السليم وأرشدته سليقته إلى صلاحيتها

كما كان يفعل ديموستين قبل ذلك بمئات السنين ، ولم يكن عبدالله نديم اطلع على خطبه ولم يعرف لغة أجنبية حديثة فضلا عن اليونانية القديمة (انظر خطبه المعروفة باسم أولنتياك Olynthiac ص ٣٧ وما بعدها إلى ص ٦٠ ج ١ مجموعة خطب ديموستين) ، ففى تلك الخطب الديموستينية من التأنيب والتقريع لشعب أثينا ما يدهش القارىء الحديث كقوله « ما لم تكن عقولكم فى أحنيتكم لا فى جماجمكم » .

وفى نظرى لا غبار على هذه الطريقة مع الجماهير المتخاذلة الغافلة فى أوقات الشدة ، والجمع بين التنكيت والإضحاك من أدعى الوسائل لإيقاظ الهمم ، ففيها الإغضاب والإضحاك أى الحامض والحلو وهما ذوا أثر فعال فى نفسية الشعب ، وهى طريقة متبعة فى أوروبا الحديثة وقد أضيف إليها التصوير الهزلى اللاذع Caricature (انظر مجلات بنش فى إنجلترا وسمبليسموس فى ألمانيا ورير فى بارس وبابا جلو فى إيطاليا) ، وكان ظهور أول عدد من جريدة نديم فى ٦ يونيو ١٨٨١ ومصر على أبواب الثورة، ومن قوله فى ذلك العدد يخاطب الكتاب وأصحاب الأقلام « كونوا معى فى المشرب الذى التزمته والمذهب الذى انتحلته ، أفكار تخيلية وفوائد تاريخية وأمثال أدبية وتبكيت ينادى بقبح الجهالة وذم الخرافات ، لنتعاون بهذه الخدمة على محو ما صرنا به مُثلة

فى الوجود من ركوب متن الغواية واتباع الهوى اللذين أضلانا سواء السبيل » .

ولما تطورت مطالب العرابيين من عدل بين الضباط إلى تغيير الحكومة من نظام استبدادى إلى نظام شورى إلى التهييج على الخديو توفيق ، إلى المنادة بعزله لالتجائه إلى الدول لحمايته ، إلى الدعوة للجهاد فى سبيل صدّ المغيرين ، واتسعت الحركة من حركة بين الجند والضباط إلى حركة وطنية واسعة تشمل العلماء والأعيان والتجار والزراع وغيرهم ، واندسّ وسط الحركة من يعمل لصالح أمير ليحل محل الخديوى توفيق ، فجماعة تعمل لصالح البرنس حليم ابن محمد على ، ومن هؤلاء صاحب جريدة « أبو نضارة » ، ومنهم من يعمل لحساب الخديو إسماعيل لإعادته ، ومن هؤلاء راتب باشا السردار وهكذا ، فى هذا الجو الذى صورناه صورة صغيرة جداً ، عمل عبد الله نديم واحتضنه العرابيون فكان خطيب الثورة وكاتبها ومشعلها .

فقد طاف فى كل مجتمع يخطب وأعطى من ذلاقة اللسان ما يستدعى العجب ، فما هو إلا أن يحرّك لسانه حتى يتدفق وتنهال عليه المعانى والألفاظ انهيالاً ، وقد نشر فى البلاد فن الخطابة وعلّم كثيراً من الناشئة أن يخطبوا فى المحافل ، وأعطى لهم المثل بمقدرته وكفايته ، وبدأ ذلك أيام كان يعلم الإنشاء والأدب فى

مدرسة الجمعية الخيرية فى الإسكندرية ، فلما أعلن الدستور فى أول عهد توفيق (٧ فبراير سنة ١٨٨٢) سرت فى النفوس هزة فرح لاتقدر وأمّل الناس أن الحكم النيابى سيصلح كل مفاسد الماضى ويرسم كل وسائل السعادة للحاضر والمستقبل ، واشتاق الناس أن يسمعوا الكلام الكثير فى هذا الموضوع ، فكان عبد الله نديم وجوقته هم الذين يغنون للناس بآمالهم ، فأقيمت الحفلة تلو الحفلة يدعى إليها النديم هو وصحبه ليخطبوا ، والنديم هو قطب الرحا يخطب أولاً ، وكلما خطب خطيب وتناول موضوعا قام النديم بعده يعقّب عليه ويتخذ من كلامه موضوعاً يطنب فيه ، وفى هذه الحفلات يحضر النظار وكبار الضباط والعلماء والنواب والأعيان فتطرب نفوسهم لهذا طربهم من عبده الحمولى ومحمد عثمان .

هذه حفلة تقيمها جمعية المقاصد يفتتحها « النديم » بقصيدة ثم يشكر الجمعية على احتفالها بالدستور ، ويتلوه إبراهيم اللقانى فيبيّن الفرق بين عهد الاستبداد وعهد الشورى ، فيعقبه النديم يكمّل موضوع الفروق بين العهدين ، ثم يقوم الشاب مصطفى ماهر باشا فيما بعد ، فيتكلم فى الحثّ على الاجتهاد فى العلوم والفنون ويستحث الأغنياء على إنشاء بنك أهلى يحمى الأهالى من استغلال المرابين ، ويختم ذلك بالدعوة إلى الألفة والاتحاد ، فيقوم بعده النديم يتكلم فى هذا الموضوع ، ثم يقوم الشيخ محمد عبده فيبين مزايا الحكومة النيابية ويطالب بوجوب أن يكون النواب من

المتعلمين ويحثّ على تعميم التعليم وعلى احترام حرية القول والكتابة وسن القوانين المبينة لحقوق الأفراد وواجباتهم ، ويقوم «النديم» بعده معقباً على قوله ، ثم يقوم أديب إسحاق فيتكلم فى شعور النواب وتضامنهم مع النظار فى كل ما يجلب الخير للبلاد ، ويتلوه النديم ، ثم يقوم فتح الله أفندى صبرى (فتحى باشا زغلول) فيخطب فى الحثّ على الاتحاد والثبات ، وينتهى هذا الاجتماع .

فلما عطل الدستور وتطورت الأمور وكانت الثورة العرابية، تحولت خطب عبد الله نديم إلى موضوع الثورة وكان يخطب فى كل مجتمع ، فى الأزهر وطلبته والجيش وجنوده وفى حفلات «الأفراح» ، فما يكون مجتمع لغرض من الأغراض إلا ويطلع عليهم عبد الله نديم وجماعة من ناشئته يعتلون المكان العالى ويخطبون فى موضوعات الثورة حتى كان إذا سئل محمد عثمان «المغنى » أين تغنى الليلة يقول « فى الفرح الفلانى مع عبد الله نديم » ، وهو فى هذا الموقف لا يتحرج من التهريج فيقول مثلا فى بعض خطبه إن طوابى الإسكندرية إذا أطلقت مدافعها يبلغ مرماها جزيرة قبرص من هذا الجانب الآخر ، فكيفما جالت الأساطيل الإنكليزية فهى تحت رحمة مدافعنا ، فيصفق الناس ، ويخطب «فتحى زغلول» فيقول النديم : ألا تعجبون لما أبدى هذا التلميذ فى خطبه من العلم والبيان والتفنن فى المواضع مع أن جلادستون خطيب إنجلترا لا يتناول إلا موضوعاً واحداً ؟ ويخطب مصطفى

ماهر فيقول النديم « أشهدكم أيها الناس أن أمة يكون هذا مقدار استعداد التلميذ فيها لا يغلبها أحد فى أمرها » .

وعلى كل حال كان عبد الله نديم لسان الأمة فى عهده بخطبه وقلمها بصحفه ، ينتقل فى الأقاليم ولا يكلّ ولا يمل ، نشر آراءه ومشاعره فى أكبر عدد ممكن من الأمة وساعد على نموّ رأى عام مصرى يؤمن بالحكم الشورى ويتطلع إلى الإصلاح فى الأمور الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، فإن كان السيد جمال الدين رسول الخاصة فى هذه المعانى ، فعبد الله نديم كان رسول العامة، فطر المعانى التى يدعو إليها جمال الدين إلى الشعب وأوصلها إلى التاجر فى متجره والفلاح فى كوخه والتلميذ فى مدرسته ، كان السيد جمال الدين بحكم أرستقراطيته فى نشأته وثقافته والوسط الذى يحيط به ولغته ، فى كلامه وكتابته معلم الخاصة ، وكان عبد الله نديم بحكم ديمقراطيته فى النشأة والعلم والوسط واللغة معلم العامة .

بقى لنا جانب كبير من جوانب نفع عبد الله نديم فى هذه الحركة وهو إيقاظ الشعور فى الشعب بحقهم فى الشكوى من الظلم والمطالبة بالعدل وإفهامهم أن الحكم يجب أن يكون مسئولاً أمامهم وأن هناك نوعاً جديداً من الحكم غير الذى ألفوه من رجوع الأمور كلها إلى إرادة الحاكم يفعل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل ، وهذا النوع الجديد هو حكم البلاد نفسها بنفسها ممثلا فى نوابها،

وأن مصر للمصريين لا للدولة العلية ولا لأية دولة أجنبية ، وهذه معان قد كانت عند خاصة الخاصة فنشرتها الثورة وعبد الله نديم فى العامة .

ووضع نديم قصة رمزية أراد أن يصور فيها شعور الناس فى هذه الفترة بعد ما كان من الإسراف فى عهد إسماعيل ووقوع مصر فى الديون الباهظة وتدخل الدول الأجنبية ، كما يصوّر بها ألم الناس من هذا المرض الأوروبى وأملهم فى النجاة منه بسعى العقلاء وتفكير أولى الرأى فيهم ، كل ذلك فى أسلوب قصصى مفهوم ، وكانت هذه المسألة هى صميم المسألة القومية فى سياسة مصر ومشكلتها الكبرى ، وهنا عبارة شديدة الشبه بما كان يلقيه ديموستين على جمهور أثينا ، قال نديم « وقام هذا الغنى إلى مكان نومه وقضى ليلة سعيدة وقال ما لنا وللدنيا وماجرى فيها ومالنا وللصحف والبرقيات ونحن كلنا بحمد الله فى غنى عظيم عندنا الخدم الذين يقومون بأعمالنا وقد خلف لنا آباؤنا من المال ما لا تفنيه الأيام ، فلا نخرج من بيوتنا إلا للمسامرات بالمضحكات والنكات اللطيفة » .

وقد أرشدته عبقريته إلى هذا النقد للسياسة العامة ونقد العيوب الاجتماعية فى أسلوب يسترعى الانتباه ، فقد التزم اللغة السهلة البسيطة عن تفكير وروية ، فقال إنه لا يريد من كتابته:

« أن تكون منمقة بمجازات واستعارات ، ولا مزخرفة بتورية

واستخدام محسنات ، ولا مفتحرة بفخامة اللفظ وبلاغة العبارة ، ولا معربة عن غزارة علم وتوقد ذكاء ، ولكن أحاديث تعودناها ولغة ألفنا المسامرة بها ، وإنما هى فى مجلسك صاحب يكلّمك بما تعلم ونديم يسامرك بما تهوى » .

وهذا فى غاية الصواب من وجوب مخاطبة الجماهير على قدر عقولهم وبتحاشى الإغراب والتعمق (وهو قادر عليها) ، وكذلك كان خطباء اليونان ومايزال كلامهم بين أيدينا يفهمه المراهق والمتوسط ورجل الشارع فضلا عن الخاصة الذين يستوعبون ويفهمون أسراره والسرّ الذى دعا إلى الإلتجاء إليه .

ولم يقنع الخطيب المفوّه والكاتب الأريب بهذا التقريب إلى أذهان العامة ، بل عمد إلى موضوعات يدبّجها باللغة الفصحى وبأدوات البلاغة التى وعد بالتنحّى عنها فيما يكتبه للعامة ، وقد فطن إلى شىء جليل القدر وهو أن التعليم من طريق القصص أجذب للنفس وأفعل فى النقد ، فأكثر منه مقتدياً بالكتب المنزلة وكبار أدباء العرب الأقدمين كالأصمعى والجاحظ وابن المقفع وبديع الزمان وابن دريد .

وأدرك أن من أهم أسباب غفلة الشرق ضعف الخطابة وانحصارها فى خطب المساجد التى نقدها المرصفى أحد أئمة ذلك العصر فى كتبه ، وهى خطب لا تمسّ الحياة الواقعة فى ناحية من ناحياتها ، فكتب فى قيمة الخطابة وأثرها فى تاريخ العرب ووضع

خطبة نموذجية توضح غرضه تتضمن المحافظة على حقوق البلاد والنهى عن الظلم والبغى والدعوة إلى الائتلاف لمواجهة الأخطار التى تظهر دلائلها فى الأفق ، والتذكير بمجد مصر السابق ، ونبذ التعصب الدينى والتحذير من تمكين الأجنبى من وضع يده على سياسة البلاد .

وفى مقالة عنوانها « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » يصف فيها نديم حالة الغرب وحالة الشرق ووسائل الاستعمار وما إلى ذلك ، ويندد بالغربيين فى أساليبهم وبالشرقيين فى غفلتهم ويشرح ما تفعل الأمم الغربية لرقيّها وما تنشره فى أمم الشرق لانحلالها وما يفعله المصريون فى تخاذلهم وتواكلهم ، ويدعو إلى الالتفاف حول الخديو ومطالبته بالمحافظة على حقوقه الشرعية ويختم المقال بقوله:

« وبالجملة فقد بلغ السيل الزبى ، فإن رفأنا هذا الخرق وشددنا أزر بعضنا وجمعنا الكلمة الشرقية مصرية وشامية وعربية وتركية ، أمكننا أن نقول لأوربا نحن نحن وأنتم أنتم ، وإن بقينا على هذا التضاد والتخاذل واللياذ بالأجنبى فريقاً بعد فريق ، حق لأوروبا أن تطردنا من بلادنا وتصدق فى قولها : « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » .

ثم علت نغمته طبقة أخرى فأخذ ينقد الإنجليز صراحة فى سياستهم فى الهند ومصر ويسبّ من يلوذ بهم ويهيج الناس على

المبشّرين وطرق التبشير ويقول إن السياسة تؤيدهم وتلعب ألاعيبها من ورائهم ، فتألبت عليه الجرائد المخالفة له فى مذهبه من إنجليزية وعربية ، وحذّرت منه وقالت إنه يعدّ البلاد لفتنة بين المسلمين وغيرهم وبين المصريين بعضهم وبعض ويحرك الضغائن بين المصريين والأجانب ويهيىء لثورة كالثورة العرابية ، ونصحت أولى الأمر من الإنجليز أن يأخذوا حذرهم منه وإلا ساءت العاقبة.. وشهّرت به بعض الجرائد الإنجليزية كالتيمس والديلى نيوز وقالت « إنه متعصب للدين مقبّح لجميع أعمال الأوروبيين وأنه ثورى مهيج » ، وأيدتها المقطم ودافع عنه المؤيد والأهرام والوطن وبعض الجرائد الفرنسية ، ولم يأل هو جهداً فى منازلة خصومه والتشهير بهم وإعلان عدم المبالاة بما يجرى له ، فقد لاقى العذاب ألواناً فى أيام اختفائه ، فكل ما سيناله هيّن بالقياس إلى ما لقى، وأعاد نشر قصيدة له فى ذلك كان قد أنشأها فى مخبئه منها :

إذا ما الدهر صافانا مرضنا ... فإن عدنا إلى خطب شفينا
لنا جلد على جلد يقينا ... فإن زاد البلا زدنا يقينا
إذا ما المجد نادانا أجبنا ... ويفطر حين ينظرنا حنينا
يُغنّينا فيلهينا التغنّى ... عن الباكى وينسينا الحزينا
ولسنا الساخطين إذا رزئنا ... نعم يلقى القضا قلبا رزينا
إذا طاش الزمان بنا حلمنا ... ولكنّا نُهينا أن نهينا

ومما يؤسف له ويبكى عليه أن وجود هذه الخواطر فى ذهن

نديم وأذهان معاصريه لم تمنع سقوط وطنه ووقوعه فيما كان يحذره كما وقع لأثينا بعد تحذير ديموستين فقد تمكن منه أعداؤه فيليب وإسكندر وأخلافهما ، ووقع ديموستين نفسه صريعاً بكأس السم التي التجأ إليها بعد أن طلبه (وغيره من خطباء الثورة الوطنية) الطاغية أوتيباتر ، ففر ديموستين إلى إيجينا ثم إلى كالوريا ثم التجأ إلى معبد نپتون ليعصمه من القتل ، فاقتفى أرشياس مبعوث مقدونيا من لدن أوتيپاتر أثره وصمم على انتزاعه من صميم الهيكل ، فقضى ديموستين وهوشيخ فى أوائل العقد السابع من عمره على نفسه بسمّ تجرعه (توفى فى الثالثة بعد الستين سنة ٣٢٢ ق ٠ م).

ولم تكن نهاية نديم بأفضل من خاتمة ديموستين ، فقد طلب اللورد كرومر من الخديوى عباس نفيه فأطاع ولم يستطع أن يحمى من كان يحميه .

وقال نديم فى آخر وداعه « وما خلقت الرجال إلا لمصادمة الأهوال والعاقل يتلذذ بما يراه فى فصول تاريخه من العظم والجلالة وإن كان المبدأ صعوبة وكدراً فى أعين الواقفين عند الظواهر ، وعلى هذا فإنى أودع إخوانى قائلا :

أودّعكم واللهُ يعلم أننى ... أحبّ لقاكم والخلودَ إليكمُ

وما عن قلىً كان الرحيل وإنّما ... دواع تعدّت فالسلام عليكم»

وتوفى نديم فى اسطامبول سنة ١٨٩٧ بعد سجنه ومحاكمته

وفراره وتشريده وخيانة قومه ، بمرض وبيل قاساه فى الاغتراب والأسى .

توفى نديم فى نحو الرابعة والخمسين من عمره ، فلم يكن عمره بالطويل ولكنه عمر عريض ، فطالما غذى الناس بقلمه وهيّجهم بأفكاره وأضحكهم وأبكاهم وحير رجال الشرطة وأقلق بال رجال السياسة ونازل خصومه من رجال الصحافة فنال منهم أكثر مما نالوا منه ، ولم يهدأ له لسان ولا قلم حيث حل ولا على أى حال كان حتى هدّأه الموت الذى يهدىء كل ثائر ، ومهما أخذ عليه فقد كان عظيماً .

كانت عظمته فى ذكائه وقوة لسانه ، قال فيه المرحوم أحمد باشا تيمور:

« كان شهىّ الحديث حلو الفكاهة إذا أوجز ودّ المحدث أنه لم يوجز ، لقيته مرة فى آخر إقامته بمصر فرأيت رجلاً فى ذكاء إياس وفصاحة سحبان وقبح الجاحظ ، أما شعره فأقل من نثره ونثره أقل من لسانه ولسانه الغاية القصوى فى عصرنا هذا .

وكان السيد جمال الدين يعجب بقوة حجته فى المناظرة والجدل وسرعة بديهته وشدّة عارضته ووضوح دليله ووضعه الألفاظ وضعاً محكماً بإزاء معانيها إن خطب أو كتب .

ثم هو شجاع لا يخاف ، يلذّه مواجهة العظماء ومنازلة الكبراء فى غير خوف ولا وجل ، إلى تواضع مع العامة

ومضاحكتهم ومؤانستهم وملاطفتهم ، لا يعبأ بالقوة ولا يخاف البطش ، فإذا نازل أحداً وسلّط عليه لسانه كانت الكارثة ، نازل الخديو توفيق والاحتلال وأبا الهدى الصيادى ، ولكلٍّ جاهه وسلطانه الذى أذل أعناق الكثيرين ، كل ذلك وهو فقير يعيش من يده إلى فمه ، ما أتاه أتلفه وما وصل إلى يده بدّده ، معتمداً على ربه الذى يرزقه كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً ، دائب العمل دائم الحركة لا يعتريه كلل ولا ملل ، يودّ أن يخلد اسمه بالعمل بعد أن حرم تخليد اسمه بالولد ٠

أعد نفسه بالخبرة والتجربة فى كل شىء حوله ، فكان كما حدّث عن نفسه « أخذت عن العلماء وجالست الأدباء وخالطت الأمراء وداخلت الحكام وعاشرت أعيان البلاد وامتزجت برجال الصناعة والفلاحة والمهن الصغيرة وأدركت ماهم فيه من جهالة ومم يتألمون وماذا يرجون ، وخالطت كثيراً من متفرنجة الشرقيين وألممت بما انطبع فى صدورهم من أشعة الغربيين ، وصاحبت جماً من أفاضل الشرقيين المتعلمين فى الغرب ممن ثبتت أقدامهم فى وظيفتهم ، وعرفت كثيراً من الغربيين ورأيت أفكارهم عالية أو سافلة فيما يختص بالشرقيين والغاية المقصودة لهم ، واختلطت بأكابر التجار وسبرت ماهم عليه من السير فى المعاملة أو السياسة ، وامتزجت بلفيف من الأجناس المتباينة جنساً ووطناً وديناً ، واشتغلت بقراءة كتب الأديان على اختلافها والحكمة

والتاريخ والأدب ، وتعلّقت بمطالعة الجرائد مدة ، واستخدمت فى الحكومة المصرية زمناً واتّجرت برهة وفلحت حيناً ، وخدمت الأفكار بالتدريس وقتاً وبالخطابة والجرائد آونة ، واتخذت هذه المتاعب وسائل لهذا المقصد الذى وصلت إليه ، بعد أن كسانى نحول الشيخوخة فى زمن بضاضة الصبا ، وتوّجنى بتاج الهرم الأبيض بدل صبغة الشباب الأسود ، فصورتى تريك هيئة أبناء السبعين ، وحقيقتى لم تشهد من الأعوام إلا تسعة وثلاثين ».

علاقة الخطابة بالفلسفة :

كانت الثورة الفرنسية وليدة عنصرين الفلسفة والخطابة كما أظهر ذلك على طريقة مقبولة واضحة المؤرخ الأيقوسى توماكارليل. فقد نسب بحق إلى روسو وفولتير وديدرو ومالبى وكوندوسيه الفضل الأكبر فى نشر الأفكار السابقة على الثورة ، ثم نسب ولادة الثورة وطفولتها ونموها ومراهقتها وفتوتها وشبابها إلى خطبائها أمثال دانتون وكاميل ديمولان وميرابو وروبزبيير ومارات وغيرهم ، وكان نصيب هؤلاء أعظم وأقوى أثراً ولهم يرجع كل تبديل وتغيير فى حياة أمتهم، ولم يكن أحدهم ذا جمال أو روعة سوى دانتون ، ومعظم هؤلاء الخطباء كانوا من أصحاب الارتجال، بل كانوا ممن ترغمهم ظروف الأحوال على الارتجال سواء أكان ذلك فى مجلس الأمة أو فى الميادين أو فى الردّ على الخصوم الناقدين أو الأعداء الحاقدين، وكلما أثيرت همة هؤلاء الخطباء كانوا يجيدون الكلام

وتتوارد عليهم الخواطر كأنهار المطر دون استعداد ، فاستمدّوا فصاحتهم من أمزجتهم ومن مواهبهم الفطرية فى كيانهم ، فلا يخطىء منطقهم ولا تتلعثم ألسنتهم ولا يرتج عليهم إلا إذا دنا أجلهم ودقت ساعة حياتهم مؤذنة بالفناء (إرتاج روبزبيير فى ليلة ٩ ترميدور).

ولاشك فى أن للخطابة علاقة متينة بالفلسفة ، فإن الكلام هو الأداة الوحيدة للتفاهم بين الناس والتعبير عما يجول فى أذهانهم، وسواء أكان الكلام نثراً مكتوباً أو شعراً منشدا أو وعظاً ونصحا أو حكمة وفلسفة ، فإنه الأداة الإنسانية الوحيدة التى تميز الإنسان عن الحيوان وتعمل على توجيه الإرادة العامة والذهن الواعى فى المخاطبين أفراداً وجماعات .

فالخطابة هى نوع من المكالمة المقصود بها إفهام من هو متهيىء لفهمه ، والمفترض فى هذا النوع من المكالمة أقيسة مفيدة ، ترغيب الجمهور وحملهم على مايريده الخطيب منهم ، وكان سقراط أول من أدخل الخطابة فى الفلسفة لمحاربة السفسطائيين الذين استفحل أمرهم ، ولكن خطابة سقراط كانت من النوع الجدلى وأظهر ما كان فى محاورات أفلاطون التى سجلت خطابة أستاذه سقراط .

ولم يعن أفلاطون بغير هذا النوع من الخطابة ، ولكن تلميذه أرسطو عالج الخطابة وجعلها تابعة للمنطق بعد أن جعل سقراط وأفلاطون المنطق تابعاً لها وخادماً ، وهذا أعدل وأصح وأصدق ،

لأن الخطابة كل وهي أصل وهو فرع ، فإن هذا الرجل رتب مسائل المنطق وجعله أول العلوم الحكمية ومدخلها وفاتحتها ، ثم جعل الخطابة أحد أقسامه الثمانية وهي - المقولات والعبارة والقياس والبرهان والجدل والسفسطة والخطابة والشعر - وهذه الكتب الثمانية ترجمت كلها في الدولة الإسلامية باللغة العربية ، وكتبها وتداولها فلاسفة الإسلام بالشرح والتلخيص كما فعل الفارابى وابن سينا ثم ابن رشد، وأما الذى يشتمل عليه كتاب الخطابة فهو تعريف المقاييس الخطابية البلاغية النافعة في مخاطبات الجمهور على سبيل المشاورات والمخاصمات (نزاع القضايا) أو المدح أو الذم أو الحيل النافعة في الاستعطاف والاستمالة والإغراء وتصغير الأمور أو تعظيمها ووجوه المعاذير والمعاتبات وأصول ترتيب الكلام في كل موضوع ومعضلة وقضية.

الخطابة والإقناع :

وشرف هذه الموهبة التي تصحبها صناعة ثابت كما قدمنا ، لأنها قوة تقوم بالإقناع الممكن في كل شيء .

فإن الطب يقنع في الصحة والمرض ، والرياضيات تقنع في الأشكال والأعداد ، وأما الخطابة فتقنع في جميع الفنون وتعالج جميع المطالب ، وأهم ما تقوم به الخطابة التأثير في التصديق، وتثبيت الأشياء التي يراد تثبيتها بشرط أن يكون الخطيب بصيراً

بفنه بجانب مواهبه.

وكان الذى يهم القدماء في العصور الذهبية عند الأمم أن يرفع الظلم والجور عن العامة وإقناع الحاكم بالتمييز بين العدل والظلم، لأنه قل ما يوجد حاكم يقدر أن يميز الأمور على كنهها فيضع أن هذا الأمر جور وهذا عدل إلا في الأقل من الزمان، وأكثر الحكام الموجودين في الأمم ليس لهم هذه القدرة ، ومن هنا حدثت نقائض، فقد يكون الحاكم نفسه خطيباً يستعمل فنه ليقنع المحكومين بأنه يعدل ولا يجور، فإذا بالغ في هذا كان ديماجوجا، وأوفق الأوضاع أن يكون للحاكم وزير خطيب يقوم بأمرين ، الأمر الأول أن يجادل الحاكم في ما يعود على المحكومين بالخير فيقنعه باتباع العدل واتقاء الجور ، ويجب أن يكون هذا الوزير أو الوسيط صادقا مخلصا فاضلا متغلباً على نفسه ومنتصراً على مطامعه وشهواته وراضيا بأن يكون الحاكم الحقيقى متوارياً وراء منصبه، يبدى الخضوع للحاكم ويتمكن من إقناعه، ويتزعم الشعب بدون معاداة للحاكم ويقف على مطالبه ومنافعه ، فيدافع عنها أمام الحاكم ويعوق الحاكم بخطابته عن الجور ، ويدافع عن الحاكم أمام الشعب ليحفظ التوازن ، وهذا عمل شديد المراس صعب التناول يقتضى التضحية والصبر وسعه الصدر ، كما يقتضى أن يكون مستعداً بشجاعة لمواجهه المواقف الحرجة ، متحملاً هجوم الأعداء ونقد الأصدقاء ، ومن هنا نرى عظمة هذه الصناعة وضخامة الدين الذى يكون في عنق صاحب هذه الموهبة ، وقد

تجره تلك الموهبة إلى السياسة والحرب وما يصحبها من الحيلة والدهاء والمجازفة . وبذا نرى أن الجماهير لا تخطىء عندما تضع فى أغلب الأحيان زمام أمورهم في أيدى فحول خطبائها، فهل وضعت الطبيعة في أنفس البلغاء والفصحاء المواهب الأخرى التى تجعلهم صالحين للرياسة ؟وهل يدرك الجمهور بالغريزة أن الفصاحة والبلاغة كالجمال والمهابة وصباحة الوجه دليل على غيرها من المواهب ؟ لا شك في أن اجتماع الفصاحة والفضيلة نعمة وبركة على صاحبهما وعلى شعبه، ولا شك أيضاً فى أن الطبيعة قد تخطىء أحياناً فتجعل الفصاحة والبلاغة آلة للخداع والغش والحيلة، فتضع الشهد على اللسان والمرارة فى القلب الذى يحرك ذلك اللسان ، وأكبر البلية أن يكون الوزير الذى وصفناه آنفاً من هذا النوع ، فإنه يكون بلية على الحاكم والمحكوم، فإنه لا يلبث أن يكتشف قوته الخفية حتى يستعمل أسلحته لنفعه ويسخّر الحاكم والمحكوم فى جلب الخير لنفسه . وهذا الأمر لم يكن ممكناً عند اليونان وهو ممكن الآن فى الحضارة الحديثة فى الشرق والغرب ، ولكنه لم يكن ممكنا فى الدولة الإسلامية فى أول أمرها عند استفحال النفاق والرياء وظهور المظالم فى عهود الخلفاء والأمراء الظالمين .

منفعتان للخطابة :

والخطابة منفعتان إحداهما أن يحث الخطيب أهل المدينة

على الأعمال الفاضلة لأنهم بالطبع يميلون إلى ضد الفضائل العادلة ، فإذا لم يضبطوا بالخطابة غلبت عليهم أضداد الأفعال العادلة ، وهذه خصلة ذميمة يستحق صاحبها التأنيب والتقريع ، فكان أمثال الحجاج وزياد أصلح الخطباء لأمثالهم ، وكما كان ديموستين في حثه أهل اليونان على مقاومة فيليب المقدوني وولده الإسكندر ٠

والمنفعة الثانية أنه ليس كل جنس من الرجال ينفع معهم استعمال البرهان في النظريات التي يراد إقناعهم بها فيضطر الخطيب إلى إحداث التصديق بالمقدمات المشتركة بينه وبين جمهور المستمعين له في المسجد أو في المجلس أو في الميدان، أي بالمحمودات والبديهيات ، (ومن هذا النوع خطبة القائد بونابرت في ساحة الهرم يحثّ جنوده على خوض المعركة ضد حكام مصر من المماليك)٠

والخطابة يمكنها الإقناع في المتضادين جميعا ، وذلك بأنّا قد نقنع في الجاني أنه قد أساء وأنه لم يسيء ، وليس معنى ذلك أن نفعل الأمرين جميعا في وقت واحد ، بل نفعل هذا في وقت وهذا في وقت بحسب الأنفع ، وذلك أنه كثيراً ما يكون الشيء الواحد نافعاً في وقت وضده نافعاً في وقت آخر ٠ فالقتل في حياة السلم جريمة تستحق القصاص ، ولا يستحق إن كان دفاعاً شرعياً عن النفس أو المال أو العرض ، وقد يكون القتل طمعاً في المال سببا

للقصاص ، ولكنه إن كان فى ثورة عامة بسبب حب الحرية كان فضيلة ، كذلك يكون القتل الإجماعى وهو ما يسمونه حرباً مفخرة وداعيا للثناء ويثاب الرجل كلما كثر عدد القتلى الذين أهرق دماءهم ·

فللخطابة الشأن الأول فى نصرة كل حالة من هذه الحالات وتعضيدها وإثبات كونها من الحق ·

وكذلك قد تقنع فى الجانى أنه أساء وأنه لم يسىء فى وقت واحد – ولكن فى هذه المرة على لسانى شخصين متغايرين ، وأقوى ما يكون هذا فى محاكم القصاص وحومة القضاء ، فإن لكل متهم بجناية مدافعاً متطوعاً أو مأجوراً أو مسخراً يتولى الذود عنه وإضعاف البراهين التى تؤدى إلى معاقبته ، وكذلك للحكومة التى تمثل المجتمع مدافع ينوب عنها ليظهر البراهين التى تؤدى بإقناع القاضى بإدانته · وكل من المدافع عن الجانى والمدافع ضده يستمد أدلته وبراهينه وقرائنه من موضوع واحد وهو واقعات الفعل المنسوب إليه ، فيأخذ كل منهما ناحية ويفترف من الأقوال والأفعال مايراه فى جانب نظريته وليس لهما مصدر آخر ، ويتباريان ويتزاحمان بالمناكب ويتسابقان فى الخواطر ويفتنّان فى التعليل والتدليل حتى يكسب أحدهما مشاعر القضاء وعقله ومنطقه ، فيكون الجانى بريئاً أو مذنباً ، لا بحسب الحقيقة ، بل بحسب القدرة التى أثبتها لنفسه أحد الخطيبين ، ولا يعرف أحد الحقيقة

إلا بحسب هذه النتيجة ، فليس هذا هو الحق المطلق المقصود لذاته ولا العدل البات الحاسم ، ولكنه الحق والعدل النسبيّان الذى ارتضاه المجتمع حسماً للنزاع بين الأفراد والجماعات ، ولابد أن يكون أحد الرجلين أبلغ من الآخر وأقدر وأوسع حيلة وأكثر دهاء وأعرف بالطرق التى يؤثر بها فى أذهان سامعيه وأعلم بنفسيتهم سواء أكانوا قضاة أو محلفين أو جمهوراً مشاهداً . فإذا نجح أحدهما بحيلته وطرائقه فى إيجاد التيار لجانب المتهم البرئ أو المذنب المستخفى فى جلد الطهارة الظاهرة ، حكم على البرئ أو برّيء المذنب ، وهو وحده الذى يعرف حقاً حقيقة أمره ، ومعه فى هذا العلم واحد أو اثنان من البشر.

ومن أعجب حوادث الدنيا أن محكمة أثينية حكمت بإعدام سقراط ولم تفلح فصاحته أو بلاغته أو الحق الذى قضى حياته فى تأييده ولم تفده الخطابة شيئاً وهى التى طالما أطلقت سراح الجناة والمذنبين ، ولأجل أن يدارى من رأى هذا الرأى ابتدع القولة الشهيرة « براءة عشرة من الجناة خير من الحكم على برئ واحد» وهى سفسطة العاجز عن اكتشاف الحق .

وحكمت محكمة فرنسية بإحراق جان دارك فى وطنها ولم تفدها خطابتها ، وحكمت محكمة إيطالية بإحراق جيوروو لومو سافونارولا ، وحكمت محكمة بغدادية بصلب حسين بن منصور الحلاج بعد جلده ، ولم تفده الخطابة ، وما أجمل ما قاله أفلاطون

فى تعليل مصارع المصلحين « وإذا حاول أحد فك أغلالهم وإصعادهم إلى النور أفلا يستاؤون منه إلى حد أنهم يقتالونه إذا كان فى طاقتهم الإيقاع به - بلى ! إنهم يقتالونه » .

وهكذا يظهر لنا أن الخطابة التى تمكن بها ألبّاء فصحاء من تخليص أعناق بعض الجناة من حبال المشانق لقاء أجور يتقاضونها وشهرة واسعة يصلون إليها وصيت عال ينالونه ، قد عجزت عن إنقاذ أعظم الرجال والنساء وأشهرهم فى حضارات متتالية .

ونحن هنا لم نتعرض لضمائر الخطباء فى هذا العمل الخاص. فقد يعتقد المدافع عن الجانى أنه مقترف ، وقد يعتقد المترافع عن الاتهام أن المتهم برئ ، ولكن حرارة النقاش وحماسة الجدل والطموح إلى المال والمناصب قد يتغلب على ما يجول فى ضميره ، وقد يكون أحد الجانبيْن مشرقاً فى نظره والجانب الآخر مظلماً ، وقد يعتقد كل منهما أنه على الحق . وكل حالة من هذه الحالات تدل على عجز الإنسان فى نهاية الأمر عن الوصول إلى الحق المطلق فى حياته القصيرة مهما أوتى من الفصاحة والبلاغة وكان فارساً من فرسان الخطابة .

ولذا تركنا البحث عن العدل عن طريق الخطابة ، فإننا نثق بأنه إذا كانت الأمور التى تقنع فيها صادقة ، كانت الخطابة التى تستعمل فيها أفضل وأبلغ ، أما فى ما ذكرناه عن المحاكمات

واستبانة الجنايات ومعاقبة المذنب وبراءة البرئ ، فليس إخفاق الخطابة دليلاً حاسماً على أنها سلاح مفلول ، لأنها لا يمكن إطلاقا أنها تقنع ولابد ، فليس يتبع فعلها الإقناع حتماً وضرورة كما يتبع فعل البناء وجود المبنى ضرورة إذا لم يكن هناك عائق من خارج ، بل عمل الخطابة هو أن تعرف جميع المقنعات فى الشىء وتأتى بها فى ذلك الشىء وإن لم يقع إقناع ، والحال فيها فى هذا المعنى كالحال فى صناعات كثيرة مثل صناعة الطب، فإنه ليس فعلها الإبراء ولابد ، بل إنما فعلها أن تبلغ من ذلك غاية الشىء الممكن فعله فى ذلك الشىء المقصود بالإبراء ، ولذلك قد يشارك فى أفعال هذه الصناعات من ليس من أهلها ، مثل أن يبرىء من ليس بطبيب ويقنع من ليس بخطيب ، لكن الفعل الحقيقى إنما هو لصاحب الصناعة ، وذلك أن الغاية تتم والغرض يتحقق والمقصود يتبع فعل هذا على الأكثر وذلك على الأقل . فمعظم الإبراء ومعظم الإقناع يتم على يد الطبيب والخطيب لا على يد الدجال والدخيل .

صفات الخطيب :

غنى عن البيان أن موهبة الابتكار تحتاج إلى البلاغة والفصاحة وجزالة الألفاظ أو رقّتها وإلى صفات شخصية ملازمة للخطيب ، ولكن الموهبة الصحيحة لا تحتاج إلى اجتماع تلك

الصفات ، فإن نقص بعضها أو تعطّل فأمكن الخطيب تفاديه بالطبيعة أو بالصناعة أو بالمران ، فحبّاً وكرامة (كما فعل النبى موسى وديموستين فى معالجة لثغتهما ، وكما فعل بعض فصحاء العرب فى انتقاء الحروف التى تظهر لثغتهم فى الراء والسين) ، وإلا فإن هذه العيوب الطبيعية قد تكون من المحسنات لدى سامعيهم ، لأن المقصود هو الروح والذهن وقوة التسلسل العقلى وليس المظاهر.

وقد اضطر الذين تعرضوا لهذا البحث (أى للخطابة) أن يبيّنوا الصفات اللازمة للخطيب وقد أخطأوا فى ذلك وبالغوا ، لأن الرجل الذى لم يوهب لا يكون خطيبا ، وسردهم الصفات والخلال يوهم القارىء أو السامع بأنها مما يستفاد بالمران أو المجاهدة ، وهذا غير صحيح ، إنما الخطيب يولد خطيباً والشاعر يولد شاعراً والكاتب يولد كاتباً ، وتلك الموهبة الأم كالكهرباء تجعلها نوراً أو حرارة أو هواء مبرداً أو قوة تدير ، ولا يدهشك أن المروحة الكهربائية لا يمكن جعلها مدفئة والسراج الكهربائى لا تجعله مروحة . فلا ندهش إذا رأينا الخطيب خطيباً وحسب لا يملك الشعر ولا النثر المكتوب ، ولا يحطّ من قدر الكاتب البليغ أن لا يكون خطيباً .

ومدار هذا الأمر على العقل وهو ما سماه القدماء جودة القريحة وطلاقة اللسان ، وذلك من فعل الله تعالى لايقدر العبد على

اكتسابه لنفسه واجتلابه لها ، أما رباطة الجأش وسكون الجوارح وحسن الأداء بالإشارة المعتدلة فهى من لوازم الطبع الخطابى ولا يمكن تلقيها ولا تعلمها ، وإن المدارس والمعاهد التى أسسوها لتخريج الخطباء والممثلين فلا يقبل فيها إلا من كانت لديهم تلك المواهب إما ظاهرة كالزهرة فى أول تفتحها وإما كامنة ولها أمارة تدل عليها . أما من كان خلوا منها فلا يقبل ، وإن قبل محاباة فلا يتعلم ولا يظهر له نبوغ مهما طالت مدة تعليمه ، وهناك ناقدون وأساتذة قد لا يكون فيهم الخطيب وإلا ما اشتغل بهذه الحرفة (تخريج الخطباء) ، ولكنه يدرك الخطيب كالذواقة الذى يعرف أصناف الخمر وليس يشربها ولا يدمنها ، ولو أدمنها ما تمكن من التمييز .

وهناك خلة أخرى كامنة وهى الذوق الفطرى ، ومظهره تخير الألفاظ والتراكيب وتنسيق الأدلة وترتيب المقدمات والنتائج ، ومخاطبة الناس على قدر أقدارهم وعلى قدر أفهامهم ، وأن لا يدقق المعانى كل التدقيق ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح ولا يصفيها كل التصفية ويهذبها كل التهذيب ولا يفعل شيئا من ذلك حتى يصادف حكيماً وفيلسوفاً عظيماً ، وكان هذا دأب ديموستين سيد خطباء اليونان ، فإن هذا الرجل أوتى من الذوق وحسن الأداء ما لم يؤته مزاحمه وندّه أيشين ، ومع هذا فقد ترك خطبه ولا سيما خطبة السفارة على هذا النحو من عدم الصقل وعدم التنقيح والتصفية ،

فكانت أبلغ وأوقع وأدّت إلى هزيمة خصمه ونفيه من أثينا ، ولم ينج من عقوبة الإعدام على تهمة الخيانة العظمى إلا بشق الأنفس (انظر ص ١٣٦ ج ٢ من خطب ديموستين المجموعة ترجمة إنجليزية) ، فالذى رأيناه في خطبة هذا الرجل أمام مجلس المحلفين في المجلس الوطنى بأثينا ، أنه سعى لإفهام كل قوم بقدر طاقتهم والحمل عليهم على قدر منازلهم .

ولما كان تقسيم المواهب على ما ذكرنا ، فإنه قد يوجد بجانب الإحسان والإساءة فى الفن ، من يحسن فى جميع الحالات فيحاور ويناظر ويملى ويكتب ويخطب، وهذا من نوادر الدهر ولكن وجوده مؤكد، فكان على بن أبى طالب يكتب ويخطب ، وكان بركليس اليونانى يكتب ويخطب ويناظر ويناضل بالقلم واللسان ، وفى العصور الحديثة چان جوريس الفرنسى والشيخان الأفغانى ومحمد عبده المصرى ومصطفى كامل المصرى .

ولا يشترط تماماً للعظمة أن يكون العظيم خطيباً ، فقد يكون الرجل أعظم القواد أو أعظم العلماء أو أنبغ الشعراء ولا يكون خطيباً إلا إذا اغتصب الكلام وابتلى نفسه بالارتجال ظناً منه أن من يقدر على ما قدر عليه ، يقدر على هذا الموقف الأكبر ، موقف الخطيب الموهوب . وقد بلغنا ما أصاب عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين أول ما صعد المنبر - وهو منبر أفصح العرب والعجم - فأُرتِج عليه فقال « إن اللذين قبلى كانا يعدان لهذا المقام

مقالاً وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام قائل ، وستأتيكم الخطبة على وجهها » ثم نزل ٠ وربما كان عثمان إذا خلا بنفسه وأعمل فكره أتى بالبيان العجيب والكلام البديع المصيب واستخرج المعنى الرائق وجاء باللفظ الرائع وكان حقه أن لا يتعرض لارتجال الخطاب ٠

على أن كلامه القصير هو فى نفسه خطبة قصيرة ، وقد دفع عن نفسه علة الإرتاج بأن سابقيه وهما أبو بكر وعمر كانا يعدّان الخطب ، وإذن لِمَ لمْ يعدّ هو خطبه وهل ينتظر يوماً أعظم من أول يوم خلافته ، وهل ينتظر موقفاً أجلّ من موقفه وهو موقف النبى وخليفتيه ، فما الذى منعه من الاستعداد ، ثم ما معنى قوله إن الناس فى حاجة إلى خليفة عادل لا قائل ؟ ٠ هل كان سلفاه الصالحان قائلين فقط أم كانا قائلين وعادلين ، بل امتاز سلفه المباشر بالعدل الذى ليس له مثيل ، وهل تمنع الفصاحة العدل ، وقد شاءت الأقدار أن يكون المتكلم عادلاً نصف خلافته والنصف الآخر يعرفه التاريخ ، وإنما ضربنا المثل بهذا الحادث لندلّك على هول موقف الخطيب وأنه موقف يزلزل الجبال وأن الذى يخونه فيه الحظ أو التقدير قد يهفو فى تعليله لينقذ نفسه من هوله وقد يصيب فى اعتذاره كما يخطىء ولو كان أمير المؤمنين وشيكا ٠

وإن الخطيب العظيم له من الصفات النفسية ما يربأ به عن تمليق الجماهير والتزلف إليهم ونسبة الفضائل لهم وتنزيههم عن الدنايا ليكون محبباً ، وقد يكون السامعون من حثالة القوم وسفلة

البشر ولكن يعوزه تعضيدهم واستجداء ثقتهم أو إعجابهم ولو إلى فترة قصيرة كأن يقول لهم « المتشرف بخطابكم وأنكم كرام وأعزة وأذكياء وأهل فطنة ونبلاء وأنصار لا يستهان بهم ، وما أعظم اليوم الذى يخاطبهم فيه ،وأنه متى وقع عليهم بصره امتلأ صحة ونشاطاً واهتزت أعطافه إعجابا وفخاراً الخ » ، فهذا كله لغو وعجز وانكسار ومذلة تذهب هيبة الخطيب من قلوب سامعيه ، فلا يصدقوه ولا يؤمنوا بكلامه ولو كان أعظم ديماجوج [1] فى العالم ، لأن واجب الخطيب الأول إثبات فضيلة نفسه التي يكون بها أهلاً أن يصدَّق ، وأن يكون عند الخطابة بهيأة في وجهه وأعضائه شأنها أن توقع التصديق بالشيء المتكلم فيه مثل التؤدة والوقار والرزانة وحسن السمت ، وهذه فى مجموعها فضيلة ، ولا شك أن للفضيلة تأثيراً فى التصديق ، وقد ثبت أن الصالحين الفاضلين يُصدَّقون سريعاً ، دون قول يتكلّفونه فى الشيء إذا كان مما يقع عليه الحسّ وإن كان من الأمور الخفية فلابد من الإقناع للسامعين بغير تكلف ولا تصنع ولا تهويل ، ولكن ليس معنى ذلك أن الفضيلة والصلاح تغنى عن المنطق والإقناع والصدق والإعلام وصحة التدليل ، وإلا كانت الفضيلة والصلاح عنواناً على كل خطيب ومفتاحاً للبلاغة والفصاحة وحسن السمت وليس هذا بنافع ، ولهذا كان بجانب الفضيلة والصلاح الاستعداد الفطرى وجودة القريحة.

(١) لفظ يونانى يطلق على رئيس عصابة الأوباش أو الأوشاب.

«الديماجوج» وواجب الخطيب :

وعلى الخطيب أن يعلم الأقوال المقنعة والأخلاق الإنسانية وأن يكون عارفاً بمصادر الانفعالات ومواردها وهى الأهواء الإنسانية والعواطف المثيرة وطرائق الخطابة - إذا توافرت هذه الخلال وصل الخطيب إلى مقام التصديق والاعتراف من المخاطب بالشيء الذى فيه الدعوى ، أى الذى يريد إثباته وتثبيته فى أذهان سامعيه على طريقة البرهان الموجز الذى وصفه الأقدمون بأنه الضمير ، ويراد به القياس الإضماري الذى قُدّرت إحدى مقدمتيه إما الكبرى وإما الصغرى ، ونعلم أن لفظ الضمير له معان منها الباطن الإنسانى ومنها ألفاظ أو حروف تدل على الشخص مثل - هو ونحن ، والضمير هنا هو البرهان الموجز الذى أشرنا إليه ، وسبب هذا أن الجماهير متهيأة بطبيعتها كل التهيأة نحو الوقوف على الحق نفسه ، وهم أكثر من ذلك يتجهون إليه ويعملون عليه ، والأشياء الممدوحة ومنها الضمائر (البراهين الموجزة) شبيهة بالحق من ناحية أنها تنوب عند الجماهير مناب الحق والشبيه بالحق قد يدخل فى علم الحق .

وإنك إذا فحصت أعمال الخطباء قديماً وحديثاً ، وجدت الموهوبين منهم كلهم على وتيرة واحدة وأسلوب واحد وسمت واحد ، لا يختلف بعضهم عن بعض شيئاً ، وهم الخطباء دون سواهم ، عقل كامل مع تجربة سالفة ووقار واعتدال وقدرة على التصديق

وحركة وسط بغير نزق ولا طيش ولا صوت مزعج ولا صرخة مفزعة ولا تهريج ، وبالطبع يكون مثل هذا الرجل ودوداً ناصحاً وليس له في الأمر المستشار غرض يتابعه ولا هوى يساعده ، فإن الأغراض جاذبة والهوى صادّ ، والرأى إذا عارضه الهوى وجاذبته الأغراض فسد .

ومما لاشك فيه أن من يتكلم في هذا الفن لا يجوز له أن يقيس الحاضر على الماضى ، فلا يجعل خطابة العرب نموذجاً لعصرنا ، ولا فصاحة ديموستين مقياساً لفصاحة جوريس أو بيبل، وإن يكن ذكر القدماء مايزال مدويا فيشبه به المعاصرون تكبيراً لأقدارهم ، فإن الطباع متغيرة والأخلاق متلونة والأحوال متباينة بألوان العصور والدول والأمم ، ولكل أمر حقيقته ، ولكل زمان طريقته ، ولكل إنسان خليقته كما قال أفلاطون الإلهى ، فلنعامل الناس على خلائقهم . وهذه قواعد بسيطة تنفع الخطيب في تصرفه مع كل طائفة من أهل طبقته ومن دونه ومن فوقه - كما ذكرنا في معاملته مع الملك والرعية [١]- إذ كل خطيب لا يمكنه أن يستعمل في كل وقت مع كل أحد كل ضرب من ضروب السياسة .

ومما يثبت أن المراد بالخطيب أن يكون مرشدا للناس ، أنه ملهم بطبعه إلى إرشادهم وحضّ الجماهير على نيل الفضائل وأن لا يتغافل عن حثّهم على ما هو أصلح لهم وأن لا يهملهم ، فإنه متى

(١) أنظر صفحة ٩٨ من هذا الكتاب .

أهملهم تحركوا نحو الطرف الآخر وهو السقوط فى البهيمية وعبادة المادة وتمجيد الأشخاص ، والخطيب الصحيح يمتاز عن الديماجوج (رئيس عصابة الأوباش) بأن هذا الأخير يدعو لنفسه ويمجد شخصه ويجلب المنافع لذاته ولذويه ويدرّ بعضها على من حوله من الجمهور البهيمي النزعة ، فتنقلب الآية إلى شخص يستغل ويستدر ويسخر ويظلم ولا يفيد إلا محبّذيه أجراً على تحبيذه، وهذا لا يمنع أن يبطش ببعض أعوانه ، فوجب على المحبّذين والمنتفعين أن يقروه على بطشه ، سواء كان عدلاً أم ظلماً، لأن عملهم أن يوقّعوا على نغمته ويتشيعوا له ، أصاب أم أخطأ ، فيندمجون فى المستبدّ المحسن إليهم ثم تتلاشى ضمائرهم بالتدريج ، حتى إذا أعانوه على الغير وعلى أنفسهم وبلغ المرحلة الأخيرة ، وأحسوا ضعفه ، ركلوه بأقدامهم وأعانوا عليه خصومه وانضموا إلى صفوف خصومه ، وهذا لا يقع إلا فى المدينة الفاسقة ، ولم نذكره إلا استطرادا ومقارنة ، لأن الخطيب الصادق يصعد بقومه إلى العلى ومايزال ينتقل فى درجات الترقى حتى يبلغ الغاية ، ويخلفه أشباه له وتعظم أحوال الجماعة ، وهذا لا يحدث إلا فى المدينة الفاضلة .

وخطيب المدينة الفاضلة يتباهى بالفقر ولا يراه مسبّة (انظر إلى كلام ديموستين فى خطبة التاج) ويعيب الغنى ولا سيما الذى أخذ المال اغتصاباً أو من طريق الخيانة العظمى أو الصغرى .

والديماجوج هو الذى يجعل همه جمع المال ويقبضه ثمناً لأصغر الأشياء وأكبر الأشياء كشرفه وعرضه وحرية وطنه ، وظناً منه أنه يذخره لينفعه عند تقلّب الدهر وتغير الأحوال وكشف ستره وافتضاح سره ، فهذا الديماجوج مجرم لا خطيب ولا ناصح ولا مشير ، ولذا فهو وإن اصطنع الصلاح والفضيلة وقصد إلى المعابد للصلاة واستأجر المدّاحين والوصّافين ليتقنوا وصف خشوعه وخضوعه وتقواه وإقبال الجماهير على تمجيده والاقتداء به، فأمره مكشوف ، وأثر الرياء ظاهر فى أعماله وأقواله ، وكل أحواله إجرام فى إجرام ، وإنما اتخذ ستاراً شفافاً من النفاق لا تخفى حقيقته على أحد ، ومثل هذا المجرم لا يعنى بالفضيلة أو الصلاح ولا يحث أحداً عليهما بل يمقتهما فى قلبه ، لأنه يعمل على محاربتهما وهو معتقد أنهما إذا وجدا ونموا وترعرعا أديا إلى كشف حاله ومقاومته ومغالبته ، وهذه حالة من أهم الأحوال التى يكون فيها والخطيب الصادق المندفع نحو الخير على طرفى نقيض، ومثال الاثنين فى القديم ديموستين وهو يقاوم أيشين فى أثينا ، وشيشرون وهو يقاوم كاتيلينا فى روما .

وفى هذا العصر الحديث كثرة من الديماجوجية لأسباب كثيرة ليس هنا موضعها لأن محلها هو التاريخ ولسنا بصدده ، وقد وصف أحد المؤلفين الفرنسيين أخلاق أشهرهم ونشأته ومسلكه وتلاعبه ونهايته فى كتاب راباجاس ، وله أشباه كثيرون بعضهم أحياء وبعضهم قضى نحبه .

وغير خافٍ كما أسلفنا أن الخطيب قد يجعل له الأمر المطلق مثل بركليس وديموستين، وقد يكون فوقه رئيس كالملك كما هي الحال في الدول الدستورية مثل خطباء الإنجليز ، ومنهم ديزرائيلى اليهودى وغلادستون القس لعهد فيكتوريا ملكة إنجلترا ، وأحد هذين الرجلين عليه واجب أثقل من المنفرد بالسلطة ، لأنه كمن تزوج ضرتين الملك والأمة ، فهو يدبر الرئيس الأعلى كما يدبر الأمة ، والذى يؤثر عن أحدهما أنه كان يتلطف مع الملكة ويجاريها فيما هى جارية نحوه مع شدة الحذر وإن تكن فى غاية الانبساط معه ، فلم يكن يلحّ عليها ولا يديم الطلب ولا يظهر الطمع والشره من نفسه ولا يطلب إلا أسباب المنافع ، لا المنافع نفسها، وعندما أراد أن يحصل لنفسه علي لقب اللوردية ، خلع عليها بحيلة لقب الأمبراطورة ، لأن الملوك يعتقدون في جميع من دونهم الاستخدام والاستعباد ، وفي أنفسهم الإصابه في جميع ما يقولون وما يفعلون وإن كان ظاهر الخطأ.

وكان أحد هذين الخطيبين زعيماً للأمة يقودها فى مجلس عموم النواب باللين والمهادنة تارة وبالوعيد والتخويف طوراً ، ويوهم الملكة بأنه يسلس قياد الشعب لها ويوهم الشعب أنه يسلس الملكه لهم، وهذا يدخل في السياسة ولكنه من لوازم الخطابة ، إذ أن مداره على الإقناع والإفهام، ولكن حيل هذين الرجلين لا تدخل في جانب الشر ، لأن غايتهما كانت الخير لوطنهما وترقية الأمة

وجلب الخير للجماعة والأفراد ، ولا يعلم أن أحدهما جلب لنفسه خيراً أو اقتنى مالا أو أورث نسله نشباً على كثرة ما كان مطروحا بين أيديهما من المال والنشب ، فلم يختر أحدهما لنفسه أن يكون تاجراً أو مدخرا أو لاعباً بالمال أو مستتبعاً هواه .

فاعلم أن الديماجوج الذى يلبس ثياب الخطيب للضرورة هو كالذئب المفترس الذى يتخذ جلد الحمل ليخدع به ، والغالب على طبعه هو الشر والاسترسال فيه ، إذا واتته السلطة فلا يستعمل الفكر ولا التمييز ولا الحياء ولا التحفظ فى جميع أعماله ، والغضب مستقر فيه والسكينة غير حاضرة عنده ، والحرص والاحتشاد ديدنه ، والشره لا يفارقه ، وإذا نبّهه أحد إلى هذه الأخلاق الرديئة فلا يسعى فى تجنبها ولا تسمح نفسه بمفارقتها بل يؤثر الإصرار عليها مع علمه برداءتها . ولذا ترى بعض الناس الذين كانوا يعرفونه قبل مواتاة السلطة له يدهشون لتغيره وقد لا يصدقون ما يسمعون عنه أو يرونه بأعينهم ، ولكن خطأ هؤلاء ظاهر لأن الرجل لم يتغير بل هذه حقيقته منذ خليقته ولكنه كان يستخفى ويتظاهر.

ولما كان أشهر الخطباء وأقدرهم هم الذين ظهروا فى مجالس القضاء القديمة فى أثينا وروما ، والحديثة فى عواصم أوروبا ، فلزم أن هؤلاء يدركون بالفطرة وبالتعليم السريع ومجاراة العصر ما أدركه الأوائل بحسب تقدم العقل الإنسانى تبعاً للتطور ، وبالفعل أن أهل الجيل الحديث يولدون وينشأون مزودين بما لم يزود به

كهول العصور السالفة ومشيختهم .

فإن بعض المواهب تورث وتنمو ، وبعض المعلومات التى كانت عويصة تلقن على أهون سبب ووسيلة ، فقد فطن المحدثون إلى أن الجماهير لا يستطيعون أن يفهموا لزوم النتيجة التى تلزم عن مقدمات كثيرة ، وأيضا فإنهم لا يباعدون بين النتيجة والشيء الذى تلزم عنه النتيجة بل يأتون بمقدمة واحدة ثم يردفونها بالنتيجة ، مثل أنهم يقولون هذا يدور بالليل فهو لص ، ولا يقولون كل من يدور بالليل فهو لص وهذا يدور بالليل فهو لص . وهذه الطريقة المطولة لا يساعد إليها القضاء ، لأن القضاة يحملون المتكلم بين أيديهم أن يكون كلامه بسيطاً غير متكلف فيه صنعة على الجمهور ولا سيما إذا كان هناك المحلفون وهم من خلاصة العامة ، فإن كان كلام الخطيب وهو المتهم والمدافع على صفة الإطالة كان غير مقنع ، أعنى فى هذا السجين مذنب أو غير مذنب، وهذا الفعل الذى أتاه محمود أو غير محمود ، وهنا تتجلى مواهب الخطيب عند اضطراره أن يصوّب سهامه إلى الأهداف وأن يقول أبلغ القول فى أوجز عبارة وأقصر زمن .

حضور البديهة :

ومن مظاهر التجلّى للخطباء الإجابة على أسئلة مفاجئة لم يستعدوا لها ، فيكون حضور البديهة وهو موهبة عقلية - خير

مسعف ومنقذ ومسعد ، لأن الجواب أصعب الكلام كله مركباً وأعزه مطلباً وأغمضه منصباً وأضيقه مسلكاً ، لأن صاحبه يعجّل مناجاة الفكرة ويستلهم الساعة الحاضرة ويحثّ القريحة فى أحرج موقف لينقض ما أبرم السائل أو يبرم ما نقضه ، ولا سيما إذا كان السائل نداً وقرماً ، أخذ بمجامع الكلام فقاده بزمامه بعد أن فكر فيه وجمع خواطره واجتهد واختمر رأيه ثم صكّ خصمه جملة واحدة وقال له أجب ولا تخطىء وأسرع ولا تبطىء ، وهنا مظاهر للتجلى باهرة يدلك عليها الاستقراء فيما نشب بين فحول الخطباء فى مجالس القضاء أمثال والديك روسو واريستيد بريان وجان جوريس ودى برسنسيه وإدوار هيريو وإدوارد كلارك وكارسون ومارشال هول ولويد جورج وجلادستون واردندولف وكيرهاردى وتوم كيتل وجون ريد موند ، فترى أحد هؤلاء يبادر بجواب من غير أناة ولا استعداد ، يطبق المفاصل وينفذ إلى المقاتل كما يرمى الجندل بالجندل ويقرع الحديد بالحديد ، فلا شىء أعضل من الجواب الحاضر ولا أعز من الخصم الألد الذى يقرع صاحبه ويصرع منازعه .

وكان الأقدمون فى يونان يجعلون المدارس لتعليم الجدل ، وهكذا أسس آيشين خصم ديموستين مدرسة فى رودس لتعليم الشبان فنون الجدل ، كان يقرأ فيها عليهم خطبه وخطب خصمه التى هزمه بها فى مجلس الأمة ومجالس القضاء بأثينا ، ومن

دواعى إعجابنا بهذا الرجل وحكمنا له بالعدل والكرامة ، أنه كان يتلو على مسامعهم خطبة ديموستين بقوة وعزم ، حتى إذا فرغ منها سألهم رأيهم ، فلما أعجبوا بخصمه قال لهم « وكيف بكم لورأيتموه وهو يلقيها ؟! » ، مما دلّ على خلو قلبه من الحسد والحقد وتمسكه بالفضيلة وتقدير الرجال ولو كانوا ألد أعدائه .

ودرج العرب على هذا ، فقد كان إبراهيم بن جبلة بن مخرمة السكونى الخطيب ، يتخذ مدرسة لتعليم فتيان العرب الخطابة ، فوقف به بشر يستمع ، فظن إبراهيم - وكان لا يعرفه - أنه إنما وقف ليستفيد ، مما يدل على أن المدرسة كانت فى مسجد أو على مقروعة الطريق أو مباحة المدخل . فقال بشر أضربوا عما قال صفحاً واطووا عنه كشحاً ، ثم أفاض عليهم من بحره بقواعد الفن ولوازمه ، فلم يقاطعه إبراهيم إلى أن ختم قوله ، فقال له إبراهيم «جعلت فداك أنا أحوج إلى تعليمى هذا الكلام من هؤلاء الغلمة » ، مما دل على سمو نفس الخطباء وأن ماهو فى الفطرة والموهبة أرقى وأعمق مما يأتى به التعليم والاصطناع .

اللغة العربية والبلاغة :

ومن الأوهام الشائعة عند العرب أن اللغة العربية أبلغ اللغات ولا توجد لغة أرقى منها ولا أبلغ ولا أفصح ، وحتى كبار رجال

الأدب الحديث يرون هذا الرأى ويتبعونه [١] ، وهذا أمر نوافق عليه لأن اللغة العربية لغة القرآن والحديث ، ولكن إيماننا بهذا وتصديقنا لا يمنع أن تكون للغات الأخرى بلاغة وفصاحة لا تقل عن بلاغة العربية ، لأن اللغة إن كانت دليلا على الحضارة فإن حضارة الأمم الغابرة والمعاصرة لاتقل عن حضارة العرب ، وأن العرب المعاصرين للفرس واليونان نقلوا إلى لغتهم علوم هؤلاء الناس وآدابهم ، والذى ثبت لدينا ولدى الباحثين قبلنا أن البلاغة ليست مقصورة على أمه دون أمة ولا على عصر دون عصر ولا على ملك دون سوقة ولا على لسان دون لسان ، بل هى مقسومة على أكثر الألسنة فهم فيها مشتركون ، وهى موجودة فى كلام اليونان وكانت مظهراً للفلسفة والحكمة والشعر والقصة والمهزلة والمأساة والخطابة والتعليم ، وفى كلام الرومان وكانت مظهراً لعدلهم وتشريعهم وقانونهم وسياستهم وجدلهم ، وكلام العجم والهند والسكسون واللاتين والألمان ، وقد يكون العبد بليغاً ولا يكون سيده كذلك ، وقد يكون البدوى بليغاً ويكون المتحضر والمتمدين عيياً .

وقد يأتى بدوى أمى جلف جاف فيبتدع بفكره وقريحته المعنى البديع والتشبيه المصيب والفكرة اللامعة والجواب المفحم ، فلا

---

(١) أنظر مقالاً للأستاذ عبد الوهاب عزام فى مجلة الرسالة الصادرة فى ٥ يونيه سنة ١٩٤٤ فى مجال الدفاع عن اللغة.

يزداد على الدهر إلا نضارة وجدّة . ثم تجد العارف واللبيب والمتعلم والعالم المصيب والأديب الحاذق يحاول أن يدرك شأو ذلك الأمي فلا يشقّ له غبار .

فمن أين لذلك البدوى الجلف تلك القدرة النادرة وهو لم يتلق علماً ولم يلقن درساً ولم يجلس إلى معلم ، ومثل قدرته فى ذلك تكون كفايته فى النثر والشعر ، كذلك يكون خطيباً ولا أستاذ له إلا الموهبة التي أودعت فيه وفاضت من جنانه على طرف لسانه ، وإن اشتهى سامعها أن يحفظها قيدها بقلمه أو وعيها عن ظهر قلب، ومن هنا نجد أنه أنّى توجّهت بحوثنا عثرنا على تلك الحقيقة الواضحة وهى كمون القوة الخطابية والموهبة الكلامية المصحوبة بالعقل فى نفوس الأفراد ، وما التعليم والاجتهاد إلا وسائل لشحذها وصقلها .

البلاغة والفصاحة والحكمة ليست مقصورة على العرب :

ولاينبغى حتما أن يكون ذلك البليغ الفصيح العاقل عربياً أو عجمياً أو هنديا ، فإن هذه النعمة مشاعة بين كل الأمم ومقسومة على سائر الأنواع والأجناس ، كالجمال عند النساء والفضائل للرجال .

وبهذا نريد أن نجتثّ من بعض الأذهان الوهم الشائع بأن البلاغة والفصاحة والحكمة قد اختصت بها العرب دون سواها أو قصرت على أرضها دون غيرها من الشعوب والأمصار .

وقد عرف القدماء من علماء العرب هذه الحقيقة ، فتناقلوا أقوالاً عن سقراط وأفلاطون والحكماء السبعة قبل عصر المأمون الذى انتقلت فيه علوم الإفرنج إلى اللغة العربية ، وقد نقلوا عن سقراط برهاناً وجيزاً على وجود الله قوله «دل الجسم على صانعه»، ونقلوا برهاناً وسطا على وجود الخالق قالوا « سأل ملك يونان أحد الحكماء من قومه ما الذى يدل على معرفة الله ؟ ويثبت العلم بالغيب ؟ فقال الحكيم إن لكل ظاهر من صغير أو كبير علماً فهو يعرفه ويحوطه ، فمن كان معتبراً بالجليل من ذلك فلينظر إلى السماء فيعلم أن لها بارئاً ، يُجرى فلكها ويدّبر أمرها ، ومن اعتبر بالصغير فلينظر إلى حبة الخردل فيعلم أن لها مدّبراً ينشئها ويركبها ويقدر لها أقواتا من الأرض والماء والهواء ويؤقت لها زماناً لهشيمها . وأمر النبوة والآيات وما يحدث فى أنفس الناس من حيث لا يعلمون ، ثم اجتماع العلماء والجهال والمهتدين والضلاّل على ذكر الله تعالى وتعظيمه ، واجتماع من شك فى الله وكذّب به ، على أنهم لم يحدثوا أنفسهم ولايعرفون من أحدثهم ، فكل ذلك يهديك إلى الله ويدل على أنه أنشأ الخلق ودبّر هذه الأمور » .

هذا بعض سعى العرب فى الإفادة من حكماء الغرب ولا سيما فيما بعد الطبيعة ، وهذه النبذة على قصرها تعدّ طويلة بالنسبة إلى ما قاله سقراط وفيها الكفاية وتعد نموذجاً على بلاغة اليونان بلاغة لا تقل عن العرب ، دع عنك ما احتوته من الحكمة . ومع هذا فإن

العارف يدْرك أن هذه نقطة من محيطات مما دوّنه الإفرنج من عهد يونان إلى عصرنا هذا ٠

فالدعوى بأن العرب قد اختصوا بالحكمة وفصل الخطاب والبلاغة غرور وطيش ودليل على الجهل بما هناك ، وهكذا الأمر فى الخطابة ، فإن المدوّن منها فى كتب الأدب العربى والمنسوب إلى العصر الجاهلى والعصر الإسلامى قطرات من بحار مما نطق به خطباؤهم على مدى الأجيال والعصور ٠ ولنتصور أن العرب كفوا عن نقل إلياذة وأوديسة هوميروس لما فيها من الشرك وذكر تعدّد الآلهة والعيب فى حق رئيسهم زفس مما أحنق أفلاطون نفسه وجعله يعيب على هومير هذه الخطة ، فلم يقصر العرب فى نقلها تعصباً أو تمجيداً للتوحيد ، ولكن لأن أفلاطون الإلهى أستاذ أرسطو وهو أعلم وأخبر بحكمة بلاده وأدبها ، انتقد هذه الخطة انتقاداً مراً فى الجمهورية وهى كتابه الخالد ٠ وكذلك أعرض العرب عن نقلها لأنهم اعتبروها من باب القصص وكانوا منشغلين بما هو أهم من القصص والشعر وعندهم منها الكثير ٠

والذى نقلوه مشوهاً أو منقوصاً أو معدلا ومنقحاً (فى نظرهم)، غمرهم وطم الوادى على القرى وقضوا أعمارهم فى فهمه وشرحه وتفسيره والتعليق عليه ، وكانوا يعلمون أثناء النقل أن لغة المترجمين أعجز من أن تنقل بلاغة الإفرنج ، قال أحدهم فى عصره « وهذا الكلام منقول إلى العربية ولعل بلغته كان أفصح وأحسن »،

وهذا هو الحق .

ومن هنا ترى أن ثورة الذين ثاروا على ترجمة القرآن من العربية إلى اللغات الأوروبية ، كانت - مع جهلهم - على بعض الحق لأنهم واثقون من بلاغة القرآن ومتشككون في قدرة المترجمين، ونقول مع جهلهم مع أن بينهم بعض علماء الدين والأدب العربى، لأنهم عندما عارضوا وثاروا فى أواسط القرن الرابع عشر الهجرى، كان القرآن مترجماً إلى كل لغات أوروبا فى القرن الثالث عشر الهجرى ، فكان احتجاجهم تحصيل حاصل ودليل على عدم إلمامهم بما هو جار فى الدنيا .

ولم يلتفت العرب إلى الخطب الطوال التى وردت عن يونان ومن أهمها دفاع سقراط عن نفسه فى مجلس الحكم الذى انتهى بإعدامه ، فقد لخصها العرب فى بضعة أسطر (القفطى وعيون الأنباء والملل والنحل) ، ولذا جاءت مخلة معتلة مع أنها من أبلغ الكلام فى الحق ، وهى ملء كتاب من تحرير اكسونوفون أحد تلاميذ سقراط .

فأهملوا بذلك فنّ الخطابة إهمالا تاماً ، وإن كان ابن رشد نقل إلى العربية كتاب الخطابة لأرسطو ، ولكن العبرة فى الخطابة اليونانية ليست فى وضع القواعد ولا درس المنطق الخطابى ، ولكن العبرة والفائدة فى نقل الخطب بنصوصها بوصف أنها نماذج تحتذى وأدوات لتحليل نفسية الخطيب وسامعيه وطرائق الكلام

والتدليل ووسائل البلاغة فى وصول الخطيب إلى أغراضه . وهذا الذى أهمله العرب اهتم به الإفرنج ، فنقلوا إلى لغاتهم جميع تلك الخطب وشرحوها وفسروها ، فاقتدى أكابرهم بها وخطوا على أثرهم وتتبعوا طرقهم وتعلموا الجدل منها ، وإذا أنت قرأت إحدى خطب ديموستين ثم قرأت خطبة من خطب الفرنسيس أو الألمان والإنجليز الذين هم فى الذروة فى هذا الفن ، رأيت الخطيب الحديث يترسَّم خطوات القديم سواء أكان القديم يونانياً أو رومانياً .

أما العرب فقد أحبوا الكلام القصير والجمل الوجيزة باعتقاد الجمال والجلال والجزالة فى الإيجاز ، وهذا خطأ محض فى فنون البلاغة ، فاكتفوا بقول أرسطو «الحاجة إلى العقل أقبح من الحاجة إلى المال » – «غير محب الشرف هو الذى يتعب نفسه بالنظر فى العلم » ، وقول سقراط « اللذة خناق من عسل الخ ».

وهذا لغو وباطل ولهو ولعب ، فهذه النكات الأدبية أو الملح الطريفة تجرى على كل لسان ، ولولا همة الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد ماعرف الأجيال شيئاً عن حكمة أرسطو وهى التى على رداءتها لم يكن فى وسعنا الاستغناء عنها . وهؤلاء الحكماء العرب الذين نقلوا فلسفة أرسطو لم يكتفوا بالشذور والنبذ لأنهم عرفوا أن التطويل واجب وأن النقص والإيجاز عجز فى مجال الإسهاب .

وأحب أن ألفت النظر إلى أن علم المعانى هو علم الخطابة عند العرب بقوانين استنبطوها ولم يتبعوها إلا قليلا . وهذا أشار إليه بصفة بدائية ابن قدامة فى كتاب النثر وإنما كانت أفكاره فى حالة امتزاج لم يمكنه من الإيضاح الفنى ولكن له فضل البداية .

الخطابة ومدح المذموم وتحسين القبيح :

ولما كان عمل الخطيب ليس مقصورا على الوعظ أو الهداية وحثّ الجمهور على الخير والصلاح ، فإنه يتناول مدح المذموم وتحسين القبيح وتحبيب المبغوض عند الضرورة ، مثال ذلك أنه قد يشير بالإقبال على القتل والصبر على الموت فى الحرب لكون الفرار من القتال دفاعا عن الحق والوطن ذنباً ومعصية فى الشرائع ، وقد تجلت هذه الضرورة فى عصرنا الحديث فى الحروب الطاحنة وتبارى الخطباء الفحول فى الحثّ عليها والدعوة إليها وتفاخروا وتباهوا فى خطبهم بعدد القتلى والأسرى والجرحى من أعدائهم وقلة أمثالهم من رجالهم . وهذا أمر مذموم فى ذاته فى عهد السلم والمؤاخاة ، ويعدّ المحبذ إليه جائراً فى الشريعة .

وقد درج الرؤساء على هذه الخطة من قديم الزمان ، ففى عهد الفرس واليونان كان الخطباء يحمّسون الجنود قبل المواقع ، ويحثّونهم على الاستشهاد عند المعارك الحاسمة ، ومما يؤثر منها خطب كسرى وأردشير وداريوس وتمستوكليس وتوسيديد وبركليس،

وعند العرب الإمام على وخالد بن الوليد وطارق بن زياد قبل فتح الأندلس ، وفى العصور الحديثة بونابرت وهتلر وشرشيل ، وقبلهما بريان وكلمنصو ، فهؤلاء خطباء لا يشك فى حبهم لأقوامهم والحرص على أعمارهم ، وإن أحدهم كان يثور ويهيج ويطغى فى القول والاحتجاج على قتل نفس واحدة بغير جريرة ، ويقلب الأرض ويقيم المملكة ويقعدها دفاعاً عن دم فرد من الأفراد اغتاله مغتال أو قضى عليه ظالم كما فعل فيكتور هيجو عند نبأ الحكم بالإعدام على رجل مطمور من العامة فى أمريكا اسمه « براون » قيل إنه اتهم بالقتل ظلماً .

ولكن عند الحرب يأمرون بقتل الألوف بل الملايين إن استطاعوا ، وإنهم يصيغون الخطب البليغة ويذيعونها فى كل مكان، ونحن لا نستحسن هذا الأمر ولا نستهجنه ولكن نتكلم على استعمال الخطابة فى الأغراض المختلفة والحاجة إليها فى كل الأحوال سواء لإنصاف المظلوم أو الدفاع عن الوطن أو تبرير القتل الإجماعى .

وكذلك إذا قهر قوم قوماً واستولى القاهر على المقهور ، ورأى خطيب المقهورين أن لا مناص من الخضوع مؤقتاً ريثما تتبدل الأحوال أو تتغير أو تسنح الفرصة للخلاص ، فربما أشار المشير عليهم أن لا يمتعضوا لذلك القهر لأنه لم يكن جورا ، وربما أوهم فيه أنه غير ضار لهم ، ومثل هذا مشاهد فى بلاد كأرض فرنسا

التى احتلها أعداؤهم بعد أن ظفروا بهم وقهروهم ، فإن فريقا من الخطباء والمشيرين أشاروا عليهم بالصبر على مضض الحكم الأجنبى القاهر وموالاة القاهر ومجاملته ومصابرته ، حتى ينالوا أكثر النفع وأقل الضرر ، وهذا لا يطعن فى وطنيتهم لأن الكبار يرون ما لا يراه الصغار ، وربما كانت هذه الخطة مؤدية إلى السلامة فى النهاية ، ولكن فريقاً من هؤلاء الخطباء والمشيرين قد يجاوزون الحد المعقول ويتعدّون الخطة المقبولة ، إذ أن واجبهم هو التصبير على المكروه تصبيراً لا يدل على تمام الرضى ، ولا تمنّى الدوام لهذه الحالة ، فإن المبالغة فى هذا السبيل وإن كانت منطوية على شىء من الحيلة والمكر ، فإنها بالنسبة للمقهور تكسر قلبه ، وتطفىء نار حماسته وتميت روحه وتحببه فى المذلة والهوان ، فلا تعود له قابلية على الحرية والاستقلال والذود عن كيان وطنه ، وإذا ألف الذل تعوّده واطمأن إليه واندثرت معالم الأمة عاماً فعاماً وجيلا فجيلا . وبالنسبة للقاهر تطمعه فى المقهور وتطغيه وتحدوه إلى المبالغة فى الإرهاق والتشدد فى المطالب ، فيتباعد ما بين الفريقين ويصبح القاهر فى غاية الكبرياء والصلف ، والمقهور فى غاية الضعة والمسكنة ، وتنشأ علة العبودية فى قلب المقهور وتنمو عاطفة الاستعباد فى قلب القاهر ، فتنقلب الغاية التى كان يرمى إليها الخطيب المشير على الأمة المقهورة بالسكينة والصبر إلى ضدها . وإذن يكون هذا المشير شراً على وطنه وبلاء عظيماً على قومه

وخطباً أكبر وأفدح من القاهر نفسه . وإذا كان هذا المشير مقبولاً لدى الناحيتين جميعا ، مثل أيشين عند اليونان المقهورة وعند فيليب المقدونى القاهر نبتت الخيانة فى قلبه وأساء قومه به الظن واحتقره القاهر .

وفى بعض بلاد الشرق عندما يحدث موقف كهذا الموقف الحرج ، قد يرمى المشير على المقهور نفسه فى أحضان قاهر أمته، أو يلقى بنفسه على أقدامه بحجة أنه يدفع الظلم عن قومه ، ثم يستمدّ من القاهر قوة تمكّنه بالتدريج من الطغيان والجبروت ، فإن كان شخصاً سفلاً ومحبّاً لذاته وشرهاً فى المال أو اجتلاب الثروة، فهناك البلاء الأعظم والخطب المدلهمّ ، لأنه من وراء ستار الدفاع عن المقهور يساير القاهر ويمعن فى خدمته والتقرب إليه حتى يحقق آماله الذاتية على الإضرار بقومه ، فيكون ظالماً صغيراً فى حجر ظالم كبير على مظلومين قد اتخذوه درعاً ، فكان سهماً فى قلوبهم وينقلب ديماجوجاً ورئيساً لعصابة الأوباش بعد أن كان خطيبا يدعو إلى الخير ومشيراً يشير بالفضائل ، وينقلب غنياً ومرتشياً ونهاباً سلاباً وهّاباً يهب أنصاره وأعوانه دماء قومه، ويفقرهم ويذلّهم ليزدادوا قهراً وخضوعا للقاهر الذى لا يبالى ما تصل إليه حالة المقهور من الذل والاستكانة والفاقة وفساد الأخلاق، لأن هذه كلها عناصر تمنع عنه أذاهم وتلجمهم وتقيّدهم إلى أن تتم غايته ، إن كانت حرباً مع الغير يريد الخلاص منها أو

محاولة قهر قوم آخرين يستنفدون منه جهداً وبلاء ومالا ٠

ومن الخطابة ذلك المادح الذى قد يسلم أن الشيء ضار ولكن يدّعى أنه فضيلة ، مثل من يخلص إنساناً من الموت غرقاً أو احتراقا ويعلم أنه يموت بتخليصه ذلك الإنسان ، فالموت يسلم به الإنسان أنه ضار ولكن يرى أنه فضيلة ، وقد رأينا فى حياتنا كثيراً من هذه الحالة ، فقد شهدنا إنجليزياً اسمه مستر شارمان كان رئيس إحدى المدارس المصرية وزوجاً لامرأة جميلة ووالداً لفتية صغار ، شهد عجوزاً من بنات جنسه تشرف على الغرق وهى تغتسل فى البحر وقد سبحت إلى أبعد ما تطيقه قوة عجوز مثلها ، فألقى الرجل بنفسه على مرأى من زوجته وأنقذ العجوز ، وأدركه الإعياء فغرق ، وقد تحدّث عنه الإنجليز والمصريون بما يدل على أنه أتى فضيلة عظيمة وهى تخليص نفس ، ولم يلتفتوا إلى مسائل ، منها أن العجوز ما كان لها أن تتوغل فى الماء إلى أبعد من قدرتها على السباحة ، وأنها هى التى بذلك ألقت بنفسها إلى التهلكة وأن موتها قد لا يضير أحداً غير زوجها الشيخ الذى كان وقت غرقها بعيداً عنها ، وأن موت منقذها الشاب قد أضر به وبزوجته وأولاده ، فمنع الضرر عن عجوز واحدة جلب أضراراً على جملة من الناس٠

ونظر المادح فى هذا أن روح النجدة والاستهداف للخطر فى سبيل الخير دليل على الشفقة والشهامة والشجاعة ، وأنه يجب تنمية هذه الروح وتشجيعها فى الأمة ، وأن المنقذ يؤمّل فى الغالب

أن ينجو وينجي الواقع فى الخطر ، ولو أنه كان متأكداً من الهلاك ما أقدم ، لأنه ليس هو الذى سبّب وقوع الآخر فى الخطر ولم يعرضه للماء أو للنار أوللقطار الداهم .

ولذا ترى كثيراً من الدهماء يقبلون على هذا الإنقاذ ، وقد يلقون حتوفهم ، مما دل على أن الضعفاء والفقراء لايعدمون تلك النجدة التى يتحلى بها أصحاب الفضائل أمثال ذلك الإنجليزى الذى عزّ عليه أن تهلك عجوز فى غيبة بعلها بينا هو وزوجته وأولاده يمرحون على شاطىء البحر ، فتكون له ولهم مسبة أبد الدهر ، هكذا وهمه ونعم الوهم ، فإن من أحيا نفساً واحدة فكمن أحيا النفوس جميعا . ولم يكن أمثال هذا الرجل الطيب شارمن ليفعل بغريزته وحدها ، بل لابد أنه سمع خطباء وقرأ كتابة تبين فضائل الإنقاذ وشرف المنقذ ، فوقر فى نفسه استحسان المنموم وهو الهلاك فى سبيل هذا الأمر ، فعدّه تضحية واجبة وقدوة حسنة وألفى من نفسه مروءة مواتية .

قلنا إن الدعوة إلى الحرب وتحسين الموت والحثّ عليه من الأمور العظام ، وعلى كاهل مثل هذه الدعوى قامت الأديان ، فإن دين موسى اقتضى حروباً هجومية وقتلاً ، ودين النبى محمد اقتضى حروباً دفاعية وملاحم عظيمة فى الفتح ، فكانت معارك أهرقت فيها دماء كثيرة من المؤمنين والمشركين جميعاً .

وكان عند كل فريق خطباء فصحاء ومبادىء قوية تدعو إلى

الصبر على القتال وبذل الأنفس والمال ، فكان المسلمون يوعدون فى القرآن وعلى لسان نبيّهم بنعيم الجنة · وهو مثل أعلى وأمنية كبرى وقد صدقوا وآمنوا وجاهدوا واستشهدوا بما ضمن لهم الظفر والنصر ، وكان المشركون يدافعون عن كيانهم وحياتهم وأموالهم وسؤددهم ، لا عن آلهتهم الصخرية أو الخشبية من أشجار وتماثيل، فكل منهما يدافع عن حياة ؛ المسلمون يدافعون عن حياة مقبلة هم يؤمنون بها كأنهم يرونها ، وقد استصغروا الحياة الدنيا بجنبها وبالنسبة لها ، وكان المشركون يدافعون عن هذه الحياة الماثلة أمامهم والتى تقرّبها إليهم عقولهم وحواسهم ·

فها هى الأموال والأرزاق بين أيديهم وهذه النساء تغنى وتنشد وتطبل وتزمر وترقص وتعدهم بالنمارق وتتوعدهم بالفراق إن هم تردّدوا أو ارتدوا ، فالمادة الأرضية من مال ونساء وشهوات وخمر وموسيقى ، جاهزة ومن لا يدافع عنها يُحرمها ويهلك ، وعلى ظنهم أنه ليس وراء هذه الحياة حياة أخرى ·

فانظرْ إلى قوة الإيمان وبأس العقيدة والتعلق بالمثل الأعلى وهو نعيم الجنة وكيف ظفر بالمادة الماثلة أمام الأعين ، وكيف أن الفريقين وجدا قوة ، كل من ناحيته على الثبات والاستقتال حتى انتهت موقعة بظفر المؤمنين وأخرى بظفر المشركين ، ولكن كانت الغلبة فى النهاية للأولين ، ولم يحرك الفريقين فى بداية الأمور إلا كلام فى القرآن وعلى لسان النبى ، وآخر على ألسنة فحول الخطباء

من المشركين .

الخطابة وسياسة الأمم :

ومن الأمور العظام التي يكون فيها للخطيب شأن ، خمسة أمور ، الأول سياسة الأمم فى الشؤون المالية والاقتصادية كما كان فعل نيكير وزير فرنسا قبل الثورة وما بذله من الجهود فى تلافى الإفلاس والدمار ومقابلة تبذير الملوك والأمراء ، ومن القوامين على هذه الأمور رجال يحسنون الكلام كما يحسنون التدبير كالوزراء فى الدول الإسلامية القديمة ، فكانت مواهبهم الكلامية قرينة فن التدبير ، وهم أصحاب الإشارة بالعدة المدخرة من الأموال للدولة .

والثانى الإشارة بالحرب أو السلم ، وأشهر من تكلم فيه من الأقدمين ديموستين وآيشين وأعضاء الشيوخ فى سناتو روما أمثال شيشرون ، ولا سيما فى حروب هنيبال ، وكان فحول الخطباء والكتاب مبرّز رجال الحرب مثل يوليوس قيصر ومارك أنطوان وپومبيوس .

والثالث الإشارة بحفظ المملكة أو الجمهورية مما يرد عليها من خارج أى هجوم الأعداء والاستعداد لهم .

والرابع الإشارة بما يصدر عن الدولة ويرد إليها وهى سياسة الصادرات والواردات ، وأهم من بحث فى هذا فى العصر الحديث

يوسف تشمبرلين فى أوائل القرن التاسع عشر وهو الحماية الجمركية أو مكوس التجارة الخارجية ، ومداره تسهيل الشراء على أهل البلاد وإيجاد الرخاء بسبب تزاحم التجارة .

والخامس الإشارة باتباع القوانين والخضوع للشريعة .

وليس الخطيب في كل من هذه الأمور الخمسة متكلماً وحسب، بل عليه أن يكون عالماً بغلات البلاد وثروتها الزراعية والمعدنية والحيوانية وحاجتها من كل شيء من هذه وما يجوز الاستغناء عنه ليمكن الاتجار فيه وموازنة أموال المملكة وما تنفقه وما تربحه وما يدخل في خزانة الدولة من الضرائب والمكوس و«العوايد » والموانى والثغور ، أى أن يكون الخطيب عالماً بالمال والاقتصاد والإدارة البلدية ومواصلات الدول وحاجة كل دولة ، وهو الذى يطلق عليه فى العصر الحديث وزير المالية ووزير الاقتصاد ووزير العمل إما مجتمعين فى شخص واحد أو متفرقين حسب حاجة الدولة ، وهذا الرجل يخطب فى المحافل والمجالس ويقابل التجار ويقنعهم أو يغريهم بجلب ما ينفع البلد وما يعود عليه بالربح أو بالحدّ من أرباحهم للمصلحة العامة . وكل واحد من ذوى الأمور الخمسة يعرف ما يتعلق بفنه ، كأحوال هجرة الغرباء إلى البلد وهجرة أهل البلد منها ، وحالة السكان من عامل وعاطل وكبير النفقة وصغيرها ورب الأسرة والعيال وحالتهم من حيث الفقر والغنى والجهل والعلم ، وأصحاب الصناعات ورواج صناعتهم وتنظيم الأعمال والنقابات

ومحاربة البطالة والفراغ وتيسير العمل للأفراد ومحاربة الفاقة والعلة والجهالة والجريمة وإصلاح شؤون الجماعة وإنفاق بعض المال فى الخيرات وتنظيم الزكاة والفروض كما هى الحال فى أوروبا حيث لا يوجد تسول ولا كدية ولا استجداء ولاتبذل ، وحيث يلزم أهل كل قرية أو مقاطعة أو بلدة بفقرائها وتعليم جهلائها ومعالجة أدواء مرضاها ، فيكون عمل الخطيب هو نفس الإصلاح الاجتماعى والتدبير الاقتصادى .

ولا يحتاج الخطيب عند الإشارة بالزيادة فى أحد هذه الأشياء، أن يكون عالماً بالنبات أو بالحيوان أو فلاحاً ، ولا فى الحرب أن يكون جندياً ، ولا فى الشريعة أن يكون قاضياً ، بل يكفيه فى ذلك معرفته بمقدار الحاجة إليها ، لكن يحتاج مع هذا أن يكون عالماً بالسير والأساليب المتقدمة فى هذه الأشياء وما عند الناس فيها ، وأما المشير بالحرب أو السلم فإنه يحتاج أن يعرف قوة من يحارب وقوة خصومه ومقدار الذخائر وعدد الجند والآلات ومقدار الأمر الذى ينال بالمحاربة هل هو يسير أو عظيم ، وحال دولته فى وثاقتها وحصانتها واستعدادها وضعف أهلها وقوتهم وفى صغر الدولة أو فى عظمها وقدرة احتمال الحرب ، وأن يعرف مع ذلك شيئاً من الحروب المتقدمة ليصف لهم كيف يحاربون إن أشار عليهم بالحرب ويهوّن عليهم أمرها أو يعرفهم بما فى الحرب من مكروه إن أشار عليهم بتركها ، كما فعل لويد جورج وبوانكاريه

وويلسـون فى الحـروب وكمـا يفـعل تشـرشل وستـالين وهتلر . وكلهم ليسوا من أهل الحـروب ولكنهم لابسوها هـوناً ما وأدركـوا مـغزاها واسـتناروا بآراء الثـقـات من رجـالهـا ووقـفوا على تواريخ الحـروب القـديمة والحـديثة ، وكـان لبـعـضـهم مشـاركـة فعلية فـيـهـا أمـثـال ثمسـتوكل وپركليس الأثينيين ، وأمـثال أبطال العرب فـى الجاهليـة وكانوا شعراء وخطباء ومحـاربين ، وهذا للتدليل على انطواء نفس الخطيب - وهو موضوع هذه الدراسة - على مواهب شتى معظمها عملى فعلى ظاهر فى ميادين الحياة ، وأهمها النضال بأنواعه ومنها شدة الذكاء وسرعة الحكم على الرجال والأشياء .

تمستوكل الخطيب الأثينى :

وقد ذكرنا بمحض المصادفة تمستوكل الأثينى وهو فى مقدمة الرجال الذين جمعوا مواهب عالية تجلت فى أفعاله وأقواله ، ولسنا بسـبـيل ذكـر التـراجم التى مـوضـعـهـا التـاريخ ، وإنما نسـتـخلص مـواطن المواهـب ومظاهرهـا فى حـيـاة هـذا الخطيب وكـان له عـلاقـة بالشرق (بلاد فـارس) فى وسط حياته وفى نهايتهـا ، ومن العـجب أنه بدأ عليماً بأحوال الأمم قديراً على تجشم المصاعب ، حريصاً على حرية وطنه وعلى حياته الشخصية مع شدة الإقدام والمجازفة وبراعـة المغـامـرة مع حـسـبـان العـواقب ، فكان نادرة دَهْره وبدعـة زمـانه وقـومـه ، وذلك كله بفـضل مـوهبـة الخطاب التى أوتيـهـا وقـدرة

التفكير وبعد النظر وصدق الحكم على الرجال والأشياء وتشبّثه بالعدل وتعلّقه بالمجد وتفضيل الصالح العام على النفع الخاص ، وعدم المبالاة بأقوال الحساد ونقد الأعداء ، إلى أن وصل الأمر إلى التآمر على حياته ٠

أظهر تمستوكل منذ طفولته حدّة فى الطبع وقوة فى العقل وحّباً للعدل ، كان فى فراغه أثناء الدراسة ينشىء خطباً فى الدفاع عن رفاقه المظلومين أو فى اتهام المذنبين منهم ، أى أن عاطفة العدل تجلّت فيه منذ حداثة عمره ، ولم تكن كامنة بل ظاهرة بالفعل، إذ أخرجها من حيز التفكير أو التحدث إلى الدفاع والاتهام ، إقامة الدعوى ودفع التهمة وهو العمل القضائى الأول الذى يرمى إلى سيادة النظام فى المدرسة وهى البيئة الأولى للطفل، ولم يكن هذا الدفاع والاتهام لهواً ولعباً أو مراناً وتقليداً ، بل مقدمة لتنفيذ العقوبة فى المذنب أو إعلان براءة البرىء ٠ وكانت هذه القدرة ظاهرة حتى لمسها أستاذه ومربّيه فقال له « ستكون يا بنى متطرفاً إما فى الخير وإما فى الشر » ٠

الخطيب المنطوى على هذه المواهب لايُعنى بالناعم من الأمور، ولا يميل إلى مظاهر القوة البدنية والتخنّث والخضوع ، وينفر من الأكاذيب التى اتفق الناس عليها وتواطؤوا على تبادلها ، وكانت بلاد اليونان أشدّ الأمم تعلقاً بالألعاب الرياضية لتقوية أجسام الذكور وتجميلها ، وكان أهلها محبّين للفنون الجميلة كالموسيقى

والغناء ، ومتمسكين بآداب العشرة المبالغ فيها ، وهذه أشياء امتدحها أفلاطون في جمهوريته ، ولا سيما الموسيقي والألعاب ٠ وكان تمستوكل سابقاً على أفلاطون بربع قرن ، فإنه توفي سنة ٤٥٣ ق ٠ م وولد أفلاطون سنة ٤٢٩ ق ٠ م ، فتمستوكل من القرن الخامس وأفلاطون من القرن الرابع قبل ميلاد عيسى عليه السلام ٠ وقد وضع أفلاطون نظامه المدني للعامة والرؤساء ، ولكن تمستوكل لم يخضع لآراء أحد ، وكان معاصراً لسقراط نفسه ، ولابد أن سقراط قد حارب في صفوف جنده ٠ لايخضع تمستوكل لا لأنه يرى في تقوية الجسم والموسيقي خنوثة، ولكن لأنه يراها مضيعة للعمر في غير فائدة وأنها كماليات لأصحاب الفراغ والجدة وليست ضرورة لسعادة الإنسان ، لأن العمر في نظره ونظر أمثاله أقصر من أن يضيع معظمه في تقوية الجسم والطرب للأنغام واللعب على العود والقانون ، مادام لدى العقل البشرى ما يشغله عنها ٠

وإنى لا أعيب الرياضة ولا الموسيقى ، فقد كان لها شأن كبير في حياة الأمم القديمة كاليونان والرومان ، والحديثة كالألمان والإنجليز ، ولكنني بسبيل تفسير إعراض تمستوكل عنهما وهو فرد من أمه قديمة ، فكان يبذل جهده في تنمية ذوقه الطبيعى واستعداده للعمل العام لشعوره بما انطوت عليه نفسه ، فلما استوحشوا أخلاقه التى لم تهذبها الموسيقى في ظن ناقديه ، أجابهم : « من الحق أننى لا أحسن الإيقاع على المزاهر ولا أتقن القفز ولا قذف

الأساطين ، ولكن اعطونى قرية صغيرة فأجعل منها مدينة عظيمة شهيرة » • والذى يشغل بسياسة المدن ، لا يكترث بتقوية عضلاته ونفخ أوداجه أو بالنفخ فى الناى ليحوز إعجاب العذارى •

وقد لمح أبوه هذا الميل عند ابنه فحاول تحويله عنه فأراه على الشاطىء يوماً سفائن مهشمة مهملة تلعب بها الأمواج ولا يلتفت إليها أحد ، فقال له « هذه العاقبة للسفن التى كانت تمخر عباب البحر وينتفع الناس بها • وهم كذلك يفعلون بالخطباء إذا تقلبوا عليهم يحطمونهم ويلقون بهم بعيداً » ولشد ما صدق أبوه فى هذا التشبيه •

ولما ظهر تمستوكل بعمله العام استجلب محبة الشعب بأمور كثيرة ، منها أنه يحيِّى كل مواطن باسمه مذ يراه فى الطريق أو فى مجلس القضاء ، وأنه يحكم بالعدل فى كل مايعرض عليه من القضايا • والخلة الأولى لاتقل عن الثانية شأناً فى حياة الخطيب، فإن رجل الشارع المجهول المهضوم المغبون عادة يفرح ويطرب إذا علم أن زعيماً أو عظيماً يعرفه باسمه ويرجو أن هذا الزعيم ينصفه إذا وقع فى ورطة مادام يعرفه باسمه ، فيتعلق به ويتشيع لمذهبه ويصير من أنصاره ، لأن أقل العطف يرضى العامة ويملك قلوبهم لحرمانهم من كل عطف خارج بيوتهم • وعن الخلة الثانية وهى الحكم بالعدل ، فقد اشتهر تمستوكل بالإنصاف وبغض الوساطة لديه لتبديل الأحكام وذاع عنه ذلك ، ولكن شاعراً شهيراً اسمه

سيمونيديس تقدّم إليه راجياً أن يحكم لمصلحته فى قضيته فاعتذر تمستوكل إليه وقال له « لن تكون شاعراً مجيداً إذا اختلّت موازين نظمك وفسدت مقاييس قصائدك ، وكذلك أنا لا أستحق وصف العدالة إذا خالفت القوانين فى الحكم لمصلحتك إذا لم يكن الحق بجانبك » .

وكان النزاع بين الفرس واليونان فى عصره على أشدهّ ، وهو أول نزاع بين الشرق والغرب ، وزاجزيز (إكسيرسيس) امبراطور الفرس ذو دولة ضخمة وجيوش برية عظيمة وأساطيل بحرية لاتحصى بوارجها ، وكان ملكا مقداماً لا يتأخر عن الذهاب إلى عدوه فى وطنه ومهاجمته فى عقر داره وإخراجه من وكره ، وكان مسلحاً بأضخم أدوات القتال فى البر والبحر مع الغنى الفاحش والشهرة المطبقة ، وله دولة واسعة الأرجاء ، واليونان صغيرة فقيرة قليلة العدد والعدد ولا تعد أمة متحدة لكونها مؤلفة من مدن وجزائر متنافسة متعادية منشقة منقسمة لا تأنف أن يُعين بعضُها العدو الأكبر على البعض الآخر ، لأن الأنانية مجسمة عند اليونان أفراداً وجماعات ، وكان ديدنهم الغدر والوقيعة بالقريب والغريب ، وهى أمة ذات أهواء متقلبة فى كل عصر لا يستقر لها قرار ، جوابة آفاق ، طالبة أرزاق ، ولكن بعض أفرادها الموهوبين ولا سيما الخطباء منهم كانوا دروعها وحصونها الحيّة المتحركة .

وقد تمكن تمستوكل عند استكمال قوته من إطفاء نيران

الحروب الداخلية والتوفيق بين المدن المتخاصمة المتحاسدة وإقناعها بالعدول عن العداوات الأهلية أمام العدو المشترك ، وكانت تساليا وهى كالمرأة اللعوب قد سلمت لملك الفرس وانضمت إليه فى محاربة بقية يونان ٠

وكان يزاحمه على القيادة اربيناد وتعضده أسبارطة أقوى مدن اليونان لحنكته وحذقه فى الملاحة ، فقام شجار بين إربيناد وتمستوكل على بداية الحركة وسير الأسطول ، فغمزه تمستوكل بكلمة موجعة تشير إلى جبنه وتنبىء بعدم توفيقه ٠

فرفع اربيناد عصاه كمن يريد أن يضرب ، فقال تمستوكل «اضربْ إذا شئت ولكن اسمع » ، فأخذ إربيناد بهذا التواضع وتغلّب حلم تمستوكل على طيشة وأصغى له ، فلما تكلم تمستوكل جذب إربيناد إلى رأيه ، وكان تمستوكل بعيداً عن وطنه آتينا غريبا فى إسبرطة مزاحماً لقائدها على الرأى والمشورة ٠ فتدخل رجل إسبرطى عندما رأى ميل إربيناد وانقياده وصاح ليقطع تيار الجاذبية الذى نشأ بين الرجلين وهو لا يعرف قدر تمستوكل ولا ما يخبئه القدر من النصر له وليونان كلها ، قال المعترض :

« لا يحق لرجل لا مدينة له (إشارة إلى أن تمستوكل هجر أثينا وخرج بأسطولها لمحاربة الفرس) أن ينصح لأصحاب المدن أن يتركوها وأن يخونوا وطنهم » ، فترك تمستوكل حلمه وتواضعه وأجاب الرجل :

« أيها الشقى ، لئن كنا تركنا ديارنا وجدرانها ، فلأننا لم نقبل أن نبقى أرقاء حباً فى أشياء لا حياة لها كالحجارة والأثاث ، على أننا مازلنا أصحاب أكبر مدن اليونان ، وها هى المائتا سفينة المعدة إذا شئتم لمعونتكم على النجاة ، أما إذا أبحرتم وخنتم أيها الإسبرطيون عهدنا للمرة الثانية ، فسوف تعلمون أننا نملك مدينة حرة أعظم وأجمل من التى فقدناها » .

وعزم تمستوكل على الانسحاب بأسطوله ففزع إربيناد من الوحدة والانفراد بقومه وسفائنه ، وحسب حساب العزلة التى تحرمه مساعدة هذا العقل الجبار وتلك الأخلاق الكريمة والبديهة الحاضرة والشجاعة النادرة ، فأعلن الانضمام إلى تمستوكل والانضواء تحت لوائه .

هذا هو الخطيب الذى كسب معركة بمكرمة وجواب مسكت ، وهو الرجل القوى الشكيمة الذى لا يقبل ضيماً ، رفُعتْ العصا فى وجهه ، وجُبه بالتعيير بأنه لا وطن له وهو المهاجر إلى قوم يناصرهم ، ملك زمام نفسه واستلّ حقد إربيناد وأخرس المتطفل الأسبرطى وأدخل الرعب فى قلوبهم فأطاعوه ، وكان بين أيديهم فى حكم الأذل الأعزل فأصبح الأعزّ الأقوى .

العالم مدين لتمستوكل لأنه بإنقاذ أثينا ضمن الحياة الهادئة المطمئنة لسقراط وأفلاطون وأرسطو فأسسوا الفلسفة ، ولو أن الفرس تمكنوا من أثينا لما هيىء لهؤلاء الثلاثة حياة العلم والحرية

والجمال والعدل التى يقتضيها نشوء الفلسفة ، قد يكون تمستوكل خالى الذهن أثناء جهاده الوطنى عن نشوء الفلسفة ، لأن سقراط كان مايزال مثّالاً فى مصنع أبيه وأفلاطون وأرسطو تلميذه لم يولدا .

انظر إلى نفسية الخطيب واعجبْ ،على الرغم من ديانة اليونان وملازمتهم لعادة التضحية البشرية الذميمة ، فإن ثمستوكل كان ينفر من إهراق الدماء البشرية باسم الدين ، وقد حرره عقله من قسوة الكهنة وغشومتهم وتعطّشهم للدماء باسم الآلهة الوهميين ، فإنه بينا كان ثمستوكل على سفينة القيادة جيء إليه بثلاثة فتيان كأجمل مايكون الشباب الناضر ، وقد تحلّوا بأنفس الحلل وأثمن الحلى تزينهم زينة فخمة وينطق من إهابهم الطهر والبراءة وحب الحياة ، قيل إنهم أبناء أوتاركتوس وسانوسه أخت الملك (؟)، فما رآهم العرّاف أوفرنتيد حتى سطع من ضحايا الحيوان لهب متلألىء ، وأخذ العراف بيد ثمستوكل وطلب إليه أن يقدّم الفتيان ضحية لباخوس زاعماً أنها الوسيلة الوحيدة لسلامة اليونان وانتصارهم ، فجمد الدم فى عروق تمستوكل لطلب العراف وما فيه من التوحش والقسوة .

وكان للفرس ألف ومائتا سفينة حربية ولليونان أقل من ثلث هذه السفائن ، ولكن تمستوكل يحسن اختيار الزمان والمكان للمعركة ، واستمر القتال طول النهار ، هذه موقعة سلاميس

الشهيرة ، فلما أرخى الليل سدوله انهزم أسطول الفرس شر هزيمة وتمستوكل هو الذى حوّل الجيش اليونانى من البر إلى البحر ، وهو الذى بنى الأسطول وهو الذى أقنع إسبرطة عدوة وطنه بالانضمام إليه ، وهو الذى أدار رحى المعركة .

وسلاحه فى هذا وذاك عقله ولسانه ، لم يكن يعرف قيادة السفن فصار أمير بحر وقائداً ، ولكنه كان رجل نضال لا يجد صعوبة فى شىء ، وهو يذكرنا بأخلاقه الذين اقتحموا ميدان السياسة والحرب فى البر والبحر ، ولأنهم من أبطال ميدان الخطابة والفصاحة ، ونعنى الرجال الذين وراء ألسنتهم عقول وإرادات ، لا نقصد الثرثارين الذين لا يجيدون إلا صنعة الكلام .

وفى التاريخ الحديث تروتوسكى المسكوفى الذى أنشأ الجيش الأحمر وهزم به أوروبا فى سنة ١٩٢٢ دفاعاً عن وطنه ، وفى تاريخ مصر الحديث خطيب واحد أتيح له الاشتراك فى ثورة وخاض غمار حرب وهو عبد الله نديم [(١)]، غير أن البيئة لم تسعفه وجهل الأمة وظلم الحكام لم يمكّنا قوته كلها من الظهور ، ولكن هذه الطينة من تلك العجينة ولا ريب ، ومن الأحياء ديفاليرا خطيباً ومحارباً ومناضلاً عن حرية وطنه .

فالفصاحة والخطابة والبلاغة إن لم تكن أم المواهب والفضائل

---

(١) انظر ص٧٨ إلى ص ٩٥ من هذا الكتاب .

كالشجاعة والحكمة والتدبير ومكارم الأخلاق ، إن لم تكن أمها وجماعها ومنبتها ، فهي على الأقل علامة عليها وعلى وجودها الكامن فى نفس صاحبها حتى تتاح الفرصة لظهورها .

نقول بفضل الخطيب تمستوكل الذى أبرزت الحوادث مواهبه، انتصرت يونان في أمجد وأجل وأشهر معركة خاضتها (سلاميس).

لم يرض ملك الفرس بالهزيمة وأراد أن ينقل جيشه إلى البر ليهزم اليونان فى أرضهم ، ولم يكن لليونان قدرة على هذه الحرب البرية ، فاهتدى تمستوكل بعقله إلى حرب الحيلة والخديعة ، وكان للملك خصيّ أسير فأطلق تمستوكل سراحه وأحسن إليه وأرسله برسالة إلى الملك خلاصتها أن اليونان بعد انتصارهم فى البحر يستعدون للرحيل إلى هلتسبون ليقطعوا جسر السفن الذى أقاموه (نوع من المآصر المعروفة فى القرون الوسطى والقديمة) ، وأن تمستوكل قلق على سلامة الملك فهو ينصح إليه بالعودة إلى البحار الخاضعة لسلطانه وشواطىء آسيا ، وأن تمستوكل سيجد المعاذير ليلهى حلفاء وطنه فيؤخر مطاردتهم الملك لينجو بأسطوله ويقنع من الغنيمة بالإياب (أوبة موقوتة) ، فدخلت الحيلة على الملك ودخل معها الرعب إلى قلبه ، فأسرع بالانسحاب وعدل عن إنزال جيشه إلى البر ، ولو أنه فعل لتمكن من اليونان تمكيناً يمحو معرة الهزيمة البحرية .

وقد شهد اليونان لتمستوكل بالعظمة ، ولكنهم حسدوه فأخذ كل منهم ينسب المجد إلى نفسه ، أما أهل إسبرطة وهم أعداؤه فقدموا إليه غصن الزيتون جائزة الحكمة ، (تأمل !) وإلى زعيمهم إربيناد جائزة المجد لا جائزة الحكمة ولا جائزة الشجاعة ، وهؤلاء الأسبرطيون النبلاء فهموا مواهب الخطيب ووازنوا بينها وبين غيرها وألهوا رئيسهم بالمجد واعترفوا لتمستوكل بالحكمة أى بالموهبة الكبرى (العقل والحكمة والفطنة والخطابة) وسجلوا أنها هى التى كسبت المعركة ، وأن الأمر ليس أمر شجاعة أو قيادة ولكنه أمر حنكة وتدبير وبعد نظر ، فلو أن انتصار البحر جلبه حسن الحظ أورضى الآلهة أو هبوب الريح ، فإن اتقاء معركة البر التى تكون أهول وأفظع قد محاها تمستوكل بتدبير العقل مستعملاً أداة فارسية هى الخصّى الفارسى الأسير .

ولما ظهر تمستوكل فى حفلة الألعاب (أولمبياد) نسى النظارة المتصارعين وحوّلوا أنظارهم طول النهار محدقين فيه مشيرين إليه بأطراف البنان مصفقين هاتفين ، فقال تمستوكل : « هذه الحفاوة المنعشة جزائى الوحيد لكل ما احتملته من الآلام فى سبيل وطنى ولا أريد سواها » ، ودل بذلك على حقيقة طبعه ، فإن الإعجاب والتشجيع حياة الخطيب والحكيم ومادة غذائه وسبب نمو مواهبه وازدهارها . وبغير هذا تموت مواهبه أو تبقى كامنة إلى آخر عمره .

وهذه نقطة لا نحب أن نغادرها دون أن نقول فيها كلمة عابرة ، فإنها تحتاج إلى بحث طويل ولكنها تدخل فى تحليل نفس العبقرى وعلاقته بالبيئة ، ونحن نحس هذا فى الشرق ربما أكثر من سوانا، لأن الجمود والركود والرسوب السائدة على جونا العقلى خليقة بإزهاق أرواح النوابغ لا بإنعاشها . فهنا الجهل الفظيع المتراكم وهنا الغفلة المسيطرة وهنا الغرور المطلق والعمى المطبق إلى جانب الحسد والحقد والغيرة التى تنهش قلوب العوام والخواص من كل رجل ممتاز ، فصاحب الموهبة يظهرها فى أول مرة ومادام خطره محدوداً ودائرته ضيقة ولا يخشاه الناس مزاحماً أو مقدما - مهما كان الخير الذى يعود عليهم منه ، ومهما كانت مكارم أخلاقه وتواضعه وحلمه وصبره على المكاره - فإنه لا يلبث أن يصير هدفاً لسهامهم وفريسة دسمة لألسنتهم وغيبتهم ونميمتهم، حتى إذا مات لم يكتفوا بتمجيده فألهوه وجعلوه رب الفصاحة والعلم والأدب ، لأنهم بموته قد اطمأنوا وهدأوا وأمنوا مزاحمته وهدأ حسدهم لأنهم لا يرونه فتتآكل أكبادهم وتتهرأ أحشاؤهم لأنهم لم ينالوا شأوه ، وإن قلمنا يتعثر إذا ذكرنا الواقعات والأسماء والحوادث المعلومة لنا ولكثير من المعاصرين .

بين اليونان قديما والشرق حديثاً :

وهذه صورة مما كان فى بلاد اليونان القديمة ، ولكن اليونان على كل حال مكّنوا عظماءهم من العمل وأبقوا الانتقام إلى مابعد النصر ، ولكن الشرق نشط حاذق فهو يقتل الفرخ فى البيضة وإن لم يتمكن فعند خروجه من البيضة ، وإن لم يتمكن فإذا بدأ الصياح وهكذا إلى أن يصحبوه إلى قبره ومقره الأخير فينشرون مناديلهم - أعلام الحزن - ويبكون دماً على الراحل الكريم والفقيد العظيم ، هذا ما فعلوه فى عهدنا أثناء حياة محمد عبده ومصطفى كامل وقاسم أمين ومازالوا يفعلون . وهذه جبلّة وفطرة وطبيعة لا يمكن تحويلهم عنها ، وهذا داء دفين وعلة مزمنة كاللعنات التى ابتلاهم الله ، فإن برئوا من القمل ومن الطاعون والحمى والبعوض وبقية اللعنات فلعلهم يبرأون من الحسد والغيرة ومقاومة المواهب ، وهيهات ثم هيهات ثم هيهات !

وقد استجمع أحد الكتاب شجاعته وكتب النبذة الآتية يفسّر بها ركود الفنون والآداب قال :

« فالذين يلومون الكتاب من المصريين على سكوتهم قد يكون فى لومهم بعض الحق ... وإما أنهم (أى الكتاب) يحسون ويدركون ما يصح أن يكتبوا فيه ويجعلوه مادة (لأدبهم وفنهم) ، ولكن ملابسات الحياة الراهنة تحجزهم عن ذلك ، وإما أن يكون الأمر كما يريد بعض أن يقول ، وذلك أن البيئة المصرية فى هذه

الفترة يستبدّ بها سبات ، وما يختلج فيها الفينة بعد الفينة إنما يختلج لمماً وخطفاً ، فهو لا يثير الفنان ولا يبعثه على التأثر والتعبير ».

هذا كلام على ركاكته وضعفه وتردّده وجبن كاتبه ، وعلى أنه كتب اعتذاراً للكاتب عن حاله ، فإنه يشير من طرف خفى إلى بعض حقيقة الحال .

وحقيقة الحال أن النابغ رجل شديد الحساسية ، والتمجيد والتشجيع والحفاوة والاحتفال به بمثابة الماء للزرع للأحياء والماء للأسماك ، وهذه بلاد الشرق جعل الله لهانصيباً من النبوغ ولكن أهلها يخنقون أصحابه أثناء استخدامهم إياهم فى منافعهم ويقاتلونهم إلى أن يقضوا عليهم ، ما فى هذا شك ، هذه بلاد أعماها المال والشهوات وهم أجهل وأعمى وألأم من عصور الجاهلية والبربرية والتوحش فى كل مكان فى العالم ، وهذا من أسباب بلائها وانحلالها وانحطاطها وخيبتها وإخفاقها ، وكل فرد منهم يسلم بذلك ويعترف به فإذا تكلم جهاراً أو كتب دافع عن هذا نفاقاً ولؤماً .

وقد يعزّى أرباب المواهب أنفسهم بحوادث الماضى فى بلاد تشبه هذه البلاد فى مخزياتها ولؤمها كاليونان القديمة وتفوق عليها بفضائل حرمت منها بلاد الشرق ، فهؤلاء اليونان الذين قتلوا فلاسفتهم وزعماءهم كما قتل اليهود أنبياءهم ، ظهر النوابغ فيهم

رغم أنوفـهم ، وهذا تمسـتـوكل يفـرح بالهتـاف ويكتـفى بالتـصـفـيق ويقول هذا خير جزاء لى ، بينما الآخرون يختزنون المال وينازعونه المجد الذى حصل عليه بعرق عقله وكدح قريحته وكدّ بدنه قال « إن هذا جزاء وفـاق لكل ما تحـملته من الآلام فى سـبـيل يـونان» ، ولكن ما بقى من الآلام كان أعظم ، هذا الشـغف بالمجد المعنوى والعظمة الروحـيـة كـانا مـتـمكنين من نفس تمسـتـوكل إلى أقـصـى حدّ ، وقـد ضـحى فى هذه السـبـيل بكل شـىء ، فـقـد تنحى عند تـعـيـينه قـائداً للأسطول عن جميع القـضـايا التى كـانت بين يديه وكـانت تجلب له ربحـاً كبيراً وتعطيه من الشـهـرة فى ساحة القضـاء مالا يدانيه فيه أحد من أهل عصـره ، والمثل الوحيد الذى يحضـرنا فى هذا المقام فى العصـر الحديث هو مثل خطيب آخر شرقى هندى صار فى مقام نبىّ عـالمى وهـو المهـاتما غـاندى ، فـإن هذا الرجل كـان يربح فى العام عشرات ألوف الجنيهات من عمل المحاماة ، فلما اختار خدمة الوطن بـعقله ولسـانه وقلبـه ، تنحى عن كل شـىء وضحى بكل شـىء حتى بيته وثيابه وكتبه ، وقد كسب لقومه وأمته وأرضـى وطنه ما لم تكسـبـه الجـحـافل من الجند والصـفـوف من الدبابات والأسـراب من الطائرات .

من خطب تمستوكل :

ومن خطب تمسـتـوكل القـصـار مما يدل على عـقله « إن أهل أثينا لا يضمرون لى حباً وإعجاباً واحتراماً ، ولكنهم يستخدموننى كـمـا يسـتـخـدمـون شـجـرة وارفـة الظلال يأوون إليـهـا عند هبـوب

العاصفة ، ومتى انقضت العاصفة أخذوا يقطعون أوراق الشجرة ويهصرون أغصانها » ، وبهذا رجع إلى رأى أبيه فى تشبيه الخطباء بالسفائن (١).

وقال له رجل من أهل سيرف (إحدى مدن اليونان) :

« لست ياتمستوكل صانع شهرتك بل اصطنعها لك وطنك»، وظاهر أن هذا حسد باحت وغيرة محض ، فأجابه تمستوكل :

« أصبت ولكنى ما كنت لأعرف الشهرة والمجد لو أنى ولدت فى سيرف ولا أنت كنت تعرفه لو أنك ولدت فى أثينا » .

وخطبته بين يدى ملك الفرس بعد أن فر من وطنه ناجياً بحياته من غدر أهل أثينا وإسبرطة الذين قلبوا له ظهر المجنّ بعد أن نصرهم وأسس مجدهم وحصّن وطنهم ضد أعدائه ، سأله المترجم من هو ؟ فأجاب:

« أنا أيها الملك تمستوكل الأتينى نفانى اليونان واضطهدونى وتآمروا على قتلى وتعقبونى وجعلوا لرأسى ثمناً ولحياتى سعراً ورصدوا الرجال لمطاردتى واصطيادى ، كما يرصد الرجال بالشباك والشراك والأفخاخ لصيد الأسود والنمور ، فأتيت أبحث عن ملجأ فى رحابك . نعم لقد أضررت بالفرس فى الحرب والسياسة ، ولكنى أحسنت إليهم بمنع اليونان من تعقبهم (يشير إلى الحيلة التى ابتكرها لتخليص وطنه من حروب البر) وإذا نجت اليونان وأصبح وطنى بعيداً عن مخاطر الحرب ، أصبحت قادراً

---

(١) أنظر صفحة ١٣٨ من هذا الكتاب .

على خدمتك ، إن عواطفى اليوم طبق حظى ، وقد جئت اليوم إما لقبول إحسانك إذا كان بفضلك لى قد ذهب وانطفأت ناره وتقلص ظله ، أو لتحويله عنى والقضاء عليَّ إن كان باقياً . إن أعدائى يشهدون لديك بما أسلفته للفرس من خدمة . فلتكن نكبتى فرصة ملائمة لإظهار عفوك عنى وفضلك عليَّ ولا تكن سبباً لخروجك عن طبعك وانتقامك منى . لقد كنت تعادينى وأنا على رأس أسطول وجيش وأمة ، أما الآن فأنا رجل أعزل منفرد لا حول لى ولا قوة، وليس بطشك جديراً بالوقوع على ضعيف لم ينْسَ مصلحتك أثناء صولته وحوله وطوله ، فاختر لنفسك مايحلو ، العفو عند المقدرة والبطش بمن لا مقدرة له ، وانقذ حياة رجل جاءك متوسلا وهو عدو صريح لأهل اليونان فرّ بجلده من نقمتهم بعد أن قابلوا جميله بضده » .

ولا يهمنا ما دار فى رأس الملك ولا ما أجاب به ، ولكن يهمنا أن الملك فرح به وأغدق عليه ولم يستخدمه فيما يعود على اليونان بالضرر ، وأن الخطيب العظيم أبى أن يبقى التفاهم بينهما بوساطة التراجم ، فانقطع لتعلم اللغة الفارسية حتى أتقنها وأصبح من وزراء الملك وأفضل مستشاريه .

وهذه المواهب العجيبة هى مواهب الخطيب اليونانى العظيم، وقد خلفه بمحض الصدفة ديموستين المولود ٣٨٥ ق . م وتوفى ٣٢٢ ق . م .

والعجيب فى أمرهما أن كلاً منهما وقف أمام قوة خارجية تريد هلاك اليونان ، فكان تمستوكل درعها ضد الفرس كما كان ديموستين درعها ضد فيليب المقدونى .

وقد لقى كل منهما حتفه بالانتحار بعد الاضطهاد والتعذيب ، كما كانت خاتمة كثير من الرجال العظماء فى اليونان أمثال سقراط وفيثاغورس وغيرهما .

وقد حفظ لنا التاريخ نصوص خطب ديموستين كما احتفظ لنا بلوتارك بتراجم بعض العظماء أمثال تموستكل وبركليس وهو الآخر خطيب عظيم ومصلح وسياسى قابله أهل وطنه بالجحود ونسبوا إليه الطمع والطموح والاستهتار ، وهذه مكافأة العظماء فى البيئات المنحطة من فجر التاريخ إلى عصرنا هذا .

بعض خطباء اليونان قديما :

قدمنا أن المقصود بهذا الفصل عن صناعة الخطابة والخطباء ودرس الفصاحة والبلاغة ليس تدوين التاريخ أو تمجيد الأشخاص أو درس ما ترتب على خطبهم وفصاحتهم من النتائج فى أحوال أوطانهم ، إنما المقصود هو إثبات ما قدمناه من صفات الخطيب الموهوبة له واتجاه أخلاقه نحو الخير ، وقد تكلمنا عن بعض خطباء اليونان المشهورين فى القرن الرابع قبل المسيح لأنه كان عصر ازدهار الفصاحة ، وبينما كانت الفصاحة والبلاغة عند

العرب فى الجاهلية ارتجالاً وفيضاً ، فإن أهل اليونان تعلموها على أساتذة فحول أمثال لسياس وجورجياس وإيسقراط ، ووصلت إلى الذروة فى عهد ديموستين ومعاصريه .

تراستيماك :

ومن أشهر أساتذة الفصاحة تراستيماك وتيودور ، والأول أخلده أفلاطون الإلاهى فى حوار الجمهورية مع سقراط ، وكان خطيباً دموى المزاج ، سريع التهيج شديد التأثير فى سامعيه حتى يستطيع أن يسبب الانفعال كما يستطيع تهدأة الخواطر بأقواله ، فإن شاء استدرّ الدموع من عيون المستمعين إليه إذا وصف الشيخوخة والفقر ، وأن يستثير الغضب وأن يشوّه سمعة خصمه وأن يفنّد التهم ، فأوجد بمواهبه تحكم الأهواء بالفصاحة ، فكان خطيباً عظيماً وكان أستاذاً قديراً .

أندوسيد :

وانتقلت الفصاحة من الفلسفة على الطريقة الأفلاطونية إلى ساحات القضاء ، فظهر أندوسيد وهو من الهواة فى صنعة المحاماة فلم يترافع إلا فى القضايا التى كانت تهمه شخصياً ، وكانت حياته أشبه شىء بحياة عبد الله نديم الخطيب المصرى (١) ، كان

---

(١) انظر صفحة ٧٨ إلى صفحة ٩٥ من هذا الكتاب .

مـغامراً من أبناء أثينا يقسم وقته بين ملذات الاجتماع وبين دروس السفسطة والمكايد السياسية ، فسجن وتخلص من السجن باتهام غيره ففقد كرامته وشرفه فحكم على نفسه بالنفى وخرج يجوب الآفـاق ويلجـأ إلى كل طريق لكسب رزقــه ، ثم حـاول العـودة إلى وطنه وألقى خطبة فى سبب العود فأخفق ثم عاد بعد العفو الشامل وغيّر مبدأه السياسى ، فبعد أن كان من أنصار الأليجاركية انتحل المبدأ الديمقراطى وتحمّس له ، فـأيقظ الأحـقـاد القديمة واتهمه خصومه بالإلحاد ، فرد عليهم بخطبة موضوعها أسرار العبادة فانتصر بفصاحته واسترد مكانته وعيّنته الحكومة عضواً فى هيئة المفاوضـات للصلح مع لاسيديمون ، وألقى خطبـة فى موضوع الصلح فأخفق ونفى من وطنه وتقلبت به الأحوال، وخير خطبه المكتوبة هى التى ألقاها فى أسرار العبادة ، وقد أثبت أن الذى أرشده إلى سلوك طريق الفصاحة ، شعوره بضرورة اتبّاع المسلك الذى اتبعه بفريزة فطرية لا بتقليد مصطنع ولا بفن منتحل، فكان فضله أعظم من المتكلفين .

لسياس :

أما لسياس فهو ابن كيفالوس الذى تقع محاورات جمهورية أفلاطون فى بيته ببلدة بيريه ، وكان كيفالوس والد لسياس متقدماً فى السن وحكيما، لطيف العشرة محترماً على الرغم من أنه دخيل

على أثينا، وكان بيته نادى الجماعة ومحفل الخاصة ومجمع أهل الأدب والعلم ، وفى هذا البيت المجيد نشأ لسياس ودرج وتربى ، ثم رحل إلى بلدة (ثوريوم) وتلقى فيها البلاغة كما كان العرب فى الجاهلية يبعثون بأولادهم إلى القبائل المشهورة بالفصاحة ، ثم عاد إلى وطنه فى عهد الثورة فاضطهده مجلس الظالمين الثلاثين وسجنوه ففر ، ولكن أخاه وشقيقه بولى مارك قتل ظلما فاشتغل لسياس بالمحاماة ووصل إلى قمة الصناعة وترك نحواً من أربعمائة خطبة وهى أشبه بما يلقى من المرافعات ويكتب من المذكرات فى محاكم باريس ، ومن آثاره الباقية كلامه فى الحب الذى أثبته أفلاطون فى محاورة فدروس ، وله خطبة فى حض أهل أثينا على مقاومة الظالمين ، وخطبة فى اتهام أراتوستين بقتل أخيه وهى أشهر خطبة وتمتاز بالإيجاز وقوة الاستدلال والوضوح وصدق اللهجة وتأثير العاطفة والتهكم اللاذع حتى وصلت إلى قلوب مستمعيه ، فبدأ فى هذه الخطبة مالكاً زمام الكلام عارفاً بأسرار البلاغة رزيناً متزناً قابضاً على زمام نفسه متحكماً فى عواطفه حتى نال الظفر المرجو ، وقد ارتجل هذه الخطبة ولكنها كانت من الجمال والقوة وحسن التنسيق بحيث ظنوا أنه كتبها أولا ثم استظهرها وألقاها ، وقد اتبع فيها قاعدة التقسيم إلى أربعة أقسام، الديباجة ثم الوقائع ثم مناقشة الأدلة ثم الخاتمة .

وكان مثل كل الخطباء العظماء يعطف على الفقير ويرحم اليتيم ويتطوع للدفاع عن الضعفاء .

إيسقراط :

وبعده ظهر إيسيا وقيل إنه أستاذ ديموستين وكان من القدرة بحيث يرغم مستمعيه إلى الإصنات إليه وتتبع سياق خطبته ، ثم ظهر إيسقراط الخطيب وكان من تلاميذ سقراط الفيلسوف ، وكان أستاذا للفصاحة وأنشأ مدرسة لتعليم البلاغة وخدم التعليم أربعين عاماً ، وتخرج من بين يديه خطباء وكتاب وحكماء وأبطال ، واتصل به بعض الملوك أمثال نيكوليس وأرشيدامس وفيليب المقدونى ومات فى التسعين من عمره ، وكان يعتبر الفصاحة نوعاً من الفلسفة ، واشتغل بالسياسة وأوجب امتزاجها بالفضيلة وهذا الذى سبب خيبته لأن السياسة والفضيلة خصمان لا يلتقيان ، وقد قاوم الديمقراطية المزيّفة وظلم الديموجاجية التى استمدت قوتها من أحطّ الأهواء وكونت ثروتها من شقاء الأمة ، ونصح بالاعتدال للفرد والجماعة ، ونهى عن تصديق خرافة العصر الذهبى الذى لم يوجد ولن يوجد .

ومع فطنة إيسقراط وذكائه ، فقد خدعه حسن الظن بفيليب المقدونى ألدّ أعداء أثينا وحسب أن اشتغال هذا الملك بالفلسفة وتنوّره يحولان دون الظلم والمكايد ، وظن أن ظاهر الرجل كباطنه

ولكنه أخطأ الظن فى ذلك وكان قصير النظر ، أما أسلوبه فكان ثورة جديدة فى النثر ولم يبلغ أحد الكتاب السابقين شأوه ، وبدأت خطبه الكبرى فى سنة ٣٨٠ قبل المسيح وكلها سياسية ووصف حياته فى إحداها ، وألقى خطبة باسم المقدونى يدعوه بحسن نية للسيطرة على اليونان ومحاربة البرابرة ، وفى آخر أيامه تنحّى عن البلاغة وصار يفر منها ويلتمس البساطة فى التعبير ، وله نظريات فى التربية ومنها تعريفه الرجل الكيس (Gentelman)، فقال إنه ليس من يمتاز بفن أو علم خاص ، وإنما هو صادق الحكم عادل ثابت متمكن من ضبط نفسه ، وبعض هذه الصفات فطرى وبعضها مستفاد من التهذيب ، وسبق مذاهب التعليم الإنسانى فى أوربا بعشرين قرناً ، وأعجب به سيسارون الروماني، ومن فضله تمهيد السبيل لديمستين أعظم خطباء اليونان قاطبة .

ديماد :

ولم يكن خطباء هذه الفترة كتاباً ولا منشئين ، وبهذا امتازت الخطابة اليونانية قبل ديمستين ، ولذا سهل لأمثال ديماد أن يكون خطيباً وهو ابن ملاح لاخلاق له ولا علم عنده وكان مرتشيا باع ذمته لأعداء وطنه ، يدمن الخمر ويلتمس الملذات ويكسل عن أسهل الأعمال ، ولكنه كان مرتجلاً نادر المثال ، قال عنه بلوتارك إنه إذا ارتجل الخطبة وحمى وطيس فصاحته وتجلت مواهب مخيّلته

وفاضت الألفاظ من فمه ، اكتسح كالطوفان كل ما سبقه من الخطب حتى ديمستين نفسه ، وهكذا كان هذا الرجل خطيباً شعبياً فاسد الذمة ، يؤثر فى الجماهير ويؤجر على الكلام ولا يبالى فى أية نظرية يتكلم ولا عن أى جهة يدافع ، وقد دل بحياته وخطبه على أن الذكاء والبلاغة والمواهب العقلية جميعها لا قيمة لها بدون أخلاق ، ومثل هذا الخطيب مما يظهرون فى عهود الانحلال ويعملون على خذلان أوطانهم ، وقد خلفه آيشين وهو الآخر مرتشٍ فاسد الذمة خائن لوطنه لا يبالى بالشرف أو بالوطن بقدر ما يبالى بما تجلبه الخيانة من النفع لشخصه .

ديموستين :

وبعد إيسقراط ظهر ديمستين أشهر خطباء اليونان ومن أشهر خطباء العالم ، وقد شهد أحد الشيوخ فى أثينا أن ديمستين أذكره ببلاغة بيركليس ، وقصة ديمستين مشهورة عن تغلّبه على لثغته وفأفاته بوضع حصاة تحت لسانه ومحاولة رفع صوته على صوت الأمواج بشاطىء البحر ، وقد تمكن ديمستين من هتك أستار آيشين بخطبته المشهورة باسم التاج فحكم بنفى آيشين وخلا الجو لديمستين وانفرد بالنفوذ والسلطة .

وكانت أول خطبه ضد الأوصياء عليه الذين اغتالوا ماله ، ثم اتجه إلى السياسة وساءه خراب وطنه وانقسام أحزابه ، واتخذ من

فيليب المقدونى عدواً لدوداً لوطنه ولشخصه .

الاسكندر الأكبر ونشر الحضارة اليونانية :

ومن آرائه الثمينة الرد على من زعم أن خضوع أثينا لفيليب المقدونى كان يعود على المدنيّة بفوائد جمة وأن مقدونيا فى عهد الاسكندر وخلفائه نشرت الحضارة فى الشرق كله ، فأعرض ديسمتين عن هذا الرأى وحاربه وقال « إننى فى مكانة القائد لا أسأل عن ماهية العدو سواء أكان خادما للإنسانية وناشراً للحضارة أم ضارباً بسهم أعلى من سهم وطنه وأصوب ، وإن مثل الاشتغال بهذا يعد جريمة لأن واجبه محصور فى ضرب العدو ودق عنقه والتغلب عليه ، فإن لم أنتصر فلا أكف عن النزال والكفاح إلى النهاية ».

وقد كان ديمستين صادق الوعد وفياً ، فقد حمل علم القتال والكفاح وأعلن الحروب على خصمه إلى نهاية حياته .

ولو لم يكن فى تاريخ خطباء اليونان إلا هذه الفكرة الصائبة التى حمل ديمستين علمها نحواً من خمسين عاماً حتى ضد الإسكندر الأكبر نفسه بعد أن قتل فيليب وخلفه هذا الملك النجيب لكفاه فخراً ، وقد يبدو فى ظاهر الأمر أن ديسمتين فضّل الوطنية على نشر الحضارة ، وهو مع ذلك إن فعل هذا فقد كان على حق ، ولكن عدل الطبيعة شاء أن يجمع ديمستين بين الفضيلتين ، حبّ الوطن وغناء الحضارة ، فإنه بأداء واجبه الوطنى زاد فى ثروة

الحضارة الأخلاقية لبلاد اليونان جميعها ، أى فى مادة هذه الحضارة نفسها التى عوتب على تعطيل نشرها فى العالم ، وكانت اليونان تصير أقل عظمة لو أن أثينا لم تكافح فى موقعة شيرونيه، وإذا كان ديسمتين على حق فى المبدأ ، كان جميلا منه جداً أن يؤدى واجبه نحو مدينته ، وهنا كانت صفة الرجولة وخصلة الشرف وغنى النفس تعادل موهبته الخطابية .

ومن أعجب الأمور أن هذه النظرية الواهية عن الحضارة والتمدين والخضوع للفاتح القوى بسبب ما يكسبه المغلوب من المال أو التهذيب المقلد المصطنع ، قد ظهرت فى بعض البلاد المحكومة مثل أيرلندا ومصر والهند ، فقاومها خطباء عظماء بفطرتهم دون أن يطّلعوا على نظرية ديمستين ، وهم أوكنيل وبارنيل فى أيرلندا ومصطفى كامل فى مصر وغاندى فى الهند ، فهؤلاء الخطباء العظماء والوطنيون الغيورون لم تخدعهم المظاهر ولم تستدرجهم الوعود الخلاّبة ولا نظريات الخيانة التى صاغها الدخلاء والخونة والمرتشون فى أجمل الصور ، زاعمين أن الحكم الأجنبى يعود على تلك الأوطان بالخير العميم وبالحضارة العريقة، فلم يستمعوا لهم ولم يكترثوا لتهديدهم بل ساروا فى طريق الدفاع عن الوطن قدماً وقاوموا المظالم وتمكّن بعضهم من الفوز والنصر على أنهم كانوا فى حكم الأعزل من كل سلاح حيال عدو قوى كما كان ديمستين حيال فيليب وابنه إسكندر ذى القرنين.

وكان ديسمتين أعظم رجال السياسة فى عصره ويعتقد أن

الخطيب مستشار الشعب وناصحه وصديقه ، يصارحه بالحق ولا يلاطفه بالتزلف ، ولخلوه من الغرض اكتسب الشجاعة والصراحة فيقول الحق ولو كان مريراً ، فالمشورة ليست سهلة ولكنها مفيدة كالدواء ، وكان ذكياً خبيراً بأسرار السياسة فإن أخطأ فهو يتحمل عواقب خطأه ، ولايجوز لرجل السياسة أن يكون جاهلا أو عاجزا فإن أحداً لم يرغمه على القيام بأعباء هذا العمل ، ولا يأبه للمنفعة الظاهرة إذا لم تكن ملتئمة مع العدل والشرف ، وقد ورث ديمستين الروح الفلسفي عن بيركليس وثوسيديد ، وكان عالماً بالتاريخ وبالعلم السياسي ، قوى الذاكرة مستعدا لتقديم الحجة من حوادث الماضى القريب والبعيد ، خبيراً بالرجال والأشياء ، عليماً بقدرة عدوه وسعة حيلته ، وكل هذه الفضائل متجلية في خطبه ، وكانت عبقريته منصبّة على الأفعال لا قانعة بالأقوال ، ومن مناقبه قدرته أثناء خطابته على تقليب الفكرة وتكرارها وإعادتها فى أشكال مختلفة وصور شتى حتى يقحمها إقحاما فى ذهن السامع.

ومن أشهر خطبه عدا مرافعاته فى القضايا المدنية الخاصة بمخاصمة الأوصياء عليه ، خطبه ضد فيليب المقدونى ، ثم خطبه فى الحض على مناصرة أهل أولنتا وعلى موقعة شيرونيه ، ثم خطبه فى موضوع السفارة ثم خطبة التاج وهى أعظمها بإجماع الآراء وقد سارت مسيرة الأمثال من فصاحتها وقوتها وأدت إلى عدّه أعظم خطيب سياسى فى سائر الأزمنة والأوطان ، وكانت عاقبته

الانتحار فى معبد نبتون فى العقد السابع من عمره بعد هزيمة أثينا ومطاردة حاكم مقدونيا إياه ومحاولة إخراجه من المعبد الذى لجأ إليه ففضّل أن يكون حتفه بيده لابيد خصمه انتيباتر صنيعة ملك المقدونيا .

أيشين :

وكان من خصوم ديسمتين خطيب عامى خائن اسمه آيشين تعرض لديمستين وقبل رشوة من فيليب ملك مقدونيا ، واشتكاه ديسمتين للشعب فنجا من عقوبة الموت بأعجوبة ، ولكنه نفى واشتغل فى آخر حياته بتعليم البلاغة والخطابة جاعلاً خطب ديسمتين أعلى نموذج للفصاحة الأثينية ، وخير الفضل ماشهد به الأعداء ، وعلى الرغم من كفاية آيشين وقدرته على الارتجال وبعض معلوماته وجراءته وحسن موقفه على المنبر ودهائه الذميم ، فقد كان بغيضاً إلى الأمة ، لأن الذكاء والفصاحة والعلم لا تغنى عن الأمانة والفضيلة شيئاً .

هيبريد :

ومن خطبائهم هيبريد وهو صديق ديمستين وشريكه فى الخطابة ضد مقدونيا وقيل إنه تلميذ إيسقراط وأفلاطون ، وكان حليف ديمستين وقسيمه فى حزب الحرب ضد مقدونيا ثم انشق

عليه واتهمه تهماً باطلة ، ولما هزمت أثينا نهائيا وفرّ ديمستين وقبض على هبريد وأمر بالاعتراف وخشى التعذيب ، قطع لسان نفسه بأسنانه ليكون عاجزاً عن الكلام ، وعثر المنقبون فى مصر فى سنة ١٨٩٢ على بعض خطبه مطمورة بين الآثار ومكتوبة باليونانية ، ومن أعجب ما وجد فى بعض خطبه الكلام على الحياة الآخرة بعد الموت ، ومن آرائه السياسية أن العالم المتمدن سيؤول أمره إلى الخضوع لحاكم واحد .

ثم الخطيب المشترع ليكيرجوس ومن أشهر خطبه قضيته ضد ليوكرات الخائن ، وقد كان فاضلاً وسببت له فضيلته كراهية الناس فلم يبالوا به .

ديمتريوس :

وآخر خطباء هذه السلسلة الذهبية ديمتريوس الفاليرى ، وبنهاية حياته انتهت الفصاحة فى أثينا وقيل إنه نزح إلى مصر فى أواخر القرن الرابع قبل المسيح وألهم بطليموس سوتر فكرة تأسيس مكتبة الإسكندرية ، وترك كتاباً فى تاريخ عشر سنوات وآخر فى تاريخ الخطباء والفصحاء ، ومن أهم أقواله فى نصح الخطباء النهى عن التكلف واتباع الطبيعة والإخلاص فى القول وإيضاح الفكرة ، وهذا قليل من كثير مما ذكرناه عن الخطباء العظماء .

أوكنيل وبارنيل :

ومن الخطباء الذين لا يسعنا إغفالهم فى العصر الحديث أوكونيل وبارنيل الأيرلنديين ، وسبب نهوضهما وظهورهما محاولتهما أن يكونا درعين لحماية وطنهما من جارتهما المتاخمة التى استولت على بلادهما منذ سبعة قرون ، وباستقراء حياتهما نجد مشابهة كبيرة بين مواهبهما ومواهب الأقدمين ولا سيما بارنيل، فكان خطيباً فصيحاً وداهية فى التدبير وقد واصل جهاده حتى شارف على النجاح ، ولكن الدسائس والفتن والمال والظلم والحسد والبغض تضافرت عليه من أصحابه الذين كانوا أعداء مستخفين سواء فى وطنه أو وطن أعدائه، فلم يملكوا قتله ولكن ملكوا تلفيق التهم والتزوير فسجنوه ، ثم لفّقوا عليه تهم الزنا فأسقطوه وقهروه فلم يتحمل شدة الصدمة ومات من الحزن والقهر مأسوفاً عليه . وتفصيل هذه الفاجعة الحديثة فى كتب منشورة ، وكان خصمه الألدّ الذى قضى عليه بجانب بعض أهل وطنه غلادستون الإنجليزى زعيم الأحرار (!!) الذى كان يظهر له المودة والتقدير ويضمر له ألد العداوة والبغضاء ، وتوصل بالقضاء عليه من تأخير استقلال أيرلاندا خمسين عاماً كاملة .

الخطابة عند العرب :

كانت الخطابة عند العرب غريزة وموهبة طبيعية ، وكانوا

ينطقون بها ارتجالاً فى أول أمرهم حتى اهتدوا إلى الاستعداد لها، وجاء العلماء المتأخرون فاستنبطوا لها قواعد تقليداً لليونان والفرس، وكانوا قبل لا يكترثون لانفطارهم على البلاغة والفصاحة.

فقالوا إن الخطب تستعمل فى إصلاح ذات البين وإطفاء ثائرة الحرب وحماية الدماء والتسديد للملك والتأكيد للعهد فى عقد الإملاك [1] وفى الدعاء إلى الله عز وجل وفى الإشادة بالمناقب ولكل ما أريد ذكره ونشره وشهرته فى الناس . وأن الخطابة لما كانت مسموعة من قائلها ومأخوذة من لفظ مؤلفها وكان الناس جميعا يرمقونه ويتصفحون وجهه ، كان الخطأ فيها غير مأمون والحصر عند القيام بها مخوفاً محصوراً ، وهذا يتعلق بشخص الخطيب مما لم يسهب فيه إلا العرب ، لأن الذى كان يكرثهم ويهمّهم قبل كل شىء هو القول لا القائل ، وإن يكن لبعضهم شذوذ ، كخطيب النصرانية الأول قس بن ساعدة الذى كان يغشى الأسواق وهو على جمل أحمر بمثابة منبر .

وزعم بعضهم أن الخطابة مشتقة من الخطب أى الأمر الجليل، وهذا وهم لأن كل الخطابة ليست علامة على وقوع الخطوب وإنما

---

(١) خطبة الإملاك أى خطبة الزواج بترغيب القبيل المخطوب إليه فى قبيل المخطوب له ، وعدّ فضائله وذكر ما يسوقه من المهر ونحو ذلك (ر.ل.ج).

هى مشتقة من المخاطبة أى المشافهة وتوجيه الحديث إلى المستمعين أفراداً أو جماعات ، وعندنا أنها والكتابة من أصل لفظى واحد وانقلاب الكاف خاء والتاء طاء من السهولة بمكان عظيم ، ولو كان فى المعاجم غير هذا فالحق الذى نقوله لأنه أقرب إلى العقل وقواعد الاشتقاق ، ويسمى خطيباً - بصيغة المبالغة لا خاطباً -- من غلبت الخطابة على مواهبه وعلى وصفه وصارت صناعة له .

مايشترط فى الخطيب عند العرب :

واشترطوا فى الخطيب أن يكون عارفا بمواقع القول وأوقاته واحتمال المستمعين له ، فلا يستعمل الإيجاز فى موضع الإطالة فيقصر عن بلوغ المراد ، ولا يستعمل الإطالة فى موضع الإيجاز فيتجاوز مقدار الحاجة إلى الإضجار والملالة ، وأن لا يستعمل ألفاظ الخاصة فى مخاطبة العامة ، ولا كلام الملوك مع السوقة ، بل يعطى كل قوم من القول بمقدارهم ويزنهم وزنهم ، فإذا رأى من القوم إقبالاً عليه وإنصاتا لقوله فأحبوا أن يزيدهم زادهم على مقدار احتمالهم ونشاطهم ، وإذا تبين منهم إعراضاً عنه وتثاقلا عن استماع قوله خفّف عنهم عملا بالمثل القائل « من لم ينشط لكلامك فارفع عنه مؤونه الاستماع منك » . ولا يكون الخطيب موصوفاً بالبلاغة ولا منعوتاً بالخطابة إلا بوضع هذه الأشياء

مواضعها ، ومعنى هذا أن يكون الخطيب صاحب حس مرهف وقدرة عقلية على إدراك فهم المستمعين له وعالماً بالنفس، حسن الفراسة يرى فى حركات القوم وسكناتهم استحسانهم أواستياءهم، بل إنه يستلهم جمهوره ويستوحيه ليكون أكثر قبولا لديهم مع محافظته على قصده، وأن يكون من الثبات والوقار والرزانة وشدة الحساب بحيث لا يندفع مع تيار مستمعيه ، لأنهم لا يزيدون عن أن يكونوا تابعين له ومتلقين عنه وملقنين كلامه وخاضعين لإرادته ومصممين على طاعته ، سواء أكانوا من الخاصة أم العامة ، فلا ينسى هذه العلاقة مطلقا ولا يندفع ولا يستهويه رضاهم فى كل الأحوال ولا يخيفه استياؤهم فى كل الأحوال ، ولذا وجبت سعة الحيلة وقوة التدبير على حسن انقيادهم له ٠ وليس ينبغى للخطيب أن يُحصر عند رمى الناس بأبصارهم إليه ولا يعبأ بالكلام عند إقبالهم عليه ، وقد يكتفى القدير بالإشارة وقد يحتاج إلى الغزارة :

يرمون بالخطب الطوال وتارة   وحى الملاحظ خيفة الرقباء

ولو صدقنا قواعد الخطابة عند العرب ثبت لدينا أن مجالس اليونان كانت مكونة من الدهماء وهم الكثرة الغالبة ، لأن خطباءهم ولا سيما ديموستين كانوا يطيلون جداً ويسهبون عملاً ، لأن الإطالة فى مخاطبة العوام ومن ليس من ذوى الأفهام ومن لا يكتفى من القول بيسير ولا ينفتق ذهنه إلا بتكراره وإيضاح تفسيره أمر محمود ومفيد (انظر خطبة التاج لديموستين)٠

ويظهر أن جماهير أوروبا الحديثة من هذا النوع ، بدليل الإطالة التي يستعملها خطباؤهم أمثال أدولف هتلر وتشرشل ، فأحدهما يخطب الساعات الثلاث والأربع ، وقد ثبت لنا أن العامة والدهماء هم سواد الشعب وكثرته ، ولم تتغير عقلياتهم من الأزمان القديمة إلى عصرنا هذا .

ومن الأوصاف التي إذا كانت في الخطيب يحمد عليها وتحسب له ، أن يكون في جميع ألفاظه ومعانيه جارياً على سجيته غير مستكره لطبيعته ولا متكلف ما ليس في وسعه ، فإن التكلف إذا ظهر في الكلام هجّنه وقبّح موقعه ، وفي القرآن الكريم « قلْ ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين » .

ومما ذكره نقاد العرب عن الصفات الطبيعية للخطيب «ويزيده في حسن الخطابة وجلالة موقعها جهارة الصوت فإنه من أجل أوصاف الخطباء :

إن صاح يوماً حسبت الصخر منحدراً

والريح عاصفة والموج يلتطـــــم

وذموا ضعف الصوت :

ومن عجب الأيام أن قمت خاطباً

وأنت ضئيل الصوت منتفخ السحرْ

وليس يلتفت في الخطابة إلى حلاوة النغمة إذا كان الصوت جهيراً لأن حلاوة النغمة تراد في التلحين والإنشاد » .

ومما حذروا منه الخطيب قولهم : وينبغى للخطيب أن يتقى خيانة البديهة في أوقات الارتجال ، ولا يغره انقياد القول له فى بعض الأحوال فيركب ذلك فى سائر الأوقات ، فالخطيب الذى لا يعادله خطيب هو الذى يأتى بالبديهة بما يأتى به غيره بعد الروية:

قهر الأمور بديهة كروّية   من غيره وقريحة كتجارب

وعلى الخطيب العربى أن لا يأتى حركة صوتية أو بدنية تدل على عيّه وحصره ، وهذا تحذير سلبى لأن الخطيب الموهوب لا يبدو عليه شيء من هذا ، كما أنه لا ينضح عرقه ولا توهن أوصاله ولا تتعب مفاصله مهما عاني بدنه أثناء خطابته ، لأنه يتلذذ بعمله ويأتيه عفواً وارتياحاً لا تكلفاً وعناء ، وسموا المتكلف وذموه ، قال الشاعر :

لله درّ عامــــر إذا نطــقْ   فى حفل إملاك وفى تلك الحلق

ليس كقوم يعرفون بالســرق   من كل نضاح الذفارى بالعرق

ولاحظ العرب فى صفات الخطيب الطبيعية ، سعة الأشداق وتبين مخارج الحروف وطول اللسان ، ويمدحون هذه ويعدونها من آلات الخطابة ، قال شاعرهم :

تشادق حتى مال بالقول شدقه   وكل خطيب لا أبالك أشدق

وكان حسان بن ثابت طويل اللسان جداً فقد أخرجه حتى ضرب بطرفه أرنبته (أى نهاية أنفه) ، وقال للرسول يصف قوة لسانه « والله لو وضعته على صخر لفلقه أو على شعر لحلقه » .

ولا يستهان بتلك الصفات البدنية ، فإنها دليل المواهب العقلية واستعداد الخطيب لقيامه بموهبته بالفعل ، كما يكون طول الأنف والعنق وعظم الآذان دليلاً على البراعة فى الغناء ، لأن هذه هى أدوات السماع والإلقاء وإعداد النغم ، كذلك سعة الأشداق وطول اللسان وجهارة الصوت وحسن السمت من لوازم الخطابة ، ولو أننا استقرأنا صفات مشاهير الخطباء فى كل العصور والأمكنة فإننا حتماً نعثر على امتيازهم بهذه الصفات الطبيعية وتجهيزهم الخلقى بهذه الأدوات كما جهز ضارب البيانو والمصور بأنامل طويلة قوية تعين على عمله .

وتبعاً لهذه اشترطوا السلامة من اللثغة والفأفأة والرتة (كثرة التاء) والتمتمة والحبسة واللفف وهى عيوب نطقية تذهب ببهاء الكلام ، ولكن لها أصول نفسية وأمراض طبيعية قد تعالج وتشفى بقوة الإرادة كما فعل ديموستين ليتغلب على بعضها بقوة الإرادة ، ومثل تغلب ديموستين على عيوب منطقه واصل بن عطاء رئيس مذهب الاعتزال وأحد الأئمة البلغاء المتكلمين ، فكان قبيح اللثغة بالراء وكان محتاجا إلى ارتجال الخطب فراض لسانه حتى أخرج الراء من منطقه وخطب خطبة طويلة تدخل فى عدة أوراق لم يلفظ فيها بالراء ، فكان مما يعدّ من فضائله وعجيب ما اجتمع فيه ، قال من خطبة يذم فيها بشاربن برد ويحرض على قتله :

« أما لهذا الملحد الأعمى المشنف المكتنى بأبى معاذ من

يقتله؟ أما والله لولا أن الفيلة سجية من سجايا الفالية لبعثت إليه من يبعج بطنه على مضجعه ويقتله فى جوف منزله وفى يوم حفله ثم كان لا يتولى ذلك منه إلا عقيلى أو سدوسى » .

وهذه كما ترى خالية من حرف الراء الذى اتقاه واصل ، وزعم ناس من العوام أن موسى صلوت الله عليه كان ألثغ ، ولم يقفوا من الحروف التى كانت تعرض له فى شىء بعينه ، فمنهم من جعل ذلك خلقة ومنهم من زعم أنه إنما اعتراه ما اعتراه حين قالت امرأة فرعون لفرعون لا تقتل طفلا لا يفرق الجمر من التمر ، فلما دعا له فرعون بهما أى التمر والجمر ، تناول جمرة فأهوى بها إلى فيه فاعتراه من ذلك ما اعتراه (ص ٢٢ البيان للجاحظ) .

وهذا الخبر كله مختلق لأن عبارة زوجة فرعون مفهومة بالبديهة ولا تحتاج إلى تجربة ، فإن الطفل لا يميز ، فإن كان فرعون لا يفهم إلى هذه الدرجة حتى أحضر التمر والجمر فلا يعقل أن الطفل تناول الجمر وأهوى به إلى فيه ، لأنه يحرق يده قبل أن يصل إلى فيه ، والذى هو صحيح أن موسى استعان بأخيه هارون لأنه أفصح منه لساناً وأقدر على الكلام ، ولكن لثغة موسى مهما كانت لم تعطله عن أداء رسالته .

ويعلم العرب من حديث الرسول أن شعيباً كان خطيب

الأنبياء وربما كان المقصود بذلك فصاحته ، على أن الأنبياء جميعهم خطباء ، فكان موسى وهرون يخطبان فى شعبهما وفى قوم فرعون ، وكان عيسى يخطب فى الأسواق والمعابد والحدائق والدور وعلى جبل الزيتون ، وكان محمد أخطب العرب والعجم ومازال خطبه مسجلة خالدة فى السلم والحرب والموعظة الحسنة والإصلاح الاجتماعى والدعوة إلى دينه ومن أعظمها خطبة الوداع.

من خطباء العرب الأقدمين :

قلنا إن الخطابة عند العرب كانت كما عند اليونان الأقدمين سفينة النجاة من الخطل والتصنّع والعبودية للألفاظ والاسترقاق للسجع وتخليص الأسلوب من شوائب التعقيد ، وقد يرفع من شأن الخطابة العربية أنها كانت جميعها وسيلة لأغراض إنسانية وأنها ثمرة الارتجال وتأثير الانفعال الوقتي والبديهة الفوّارة .

ولما ظهر الإسلام ونهى عن الحميّة الجاهية اتجهت البلاغة العربية نحو المقاصد العليا والذود عن الدولة الناشئة ووضع أسس الحضارة ، فوضحت العناصر الإنسانية بجلاء فى الأدب العربى - ومنه الخطابة - إلى يومنا هذا .

وقد اقتدى العرب فى خطبهم بفحول الإغريق أمثال ديموستين وبركليس وثموستوكليس ممن كان شأنهم الارتجال وإثارة الشعور

وإيقاظ الوجدان ، وكان اعتمادهم على البراهين الواضحة والأدلة الناصعة التى تؤثر فى العقول ، وعلى تصوير المعانى المرتجلة فى قوالب رائعة للوصول إلى الافئدة وإهاجة العاطفة .

وأقدم هؤلاء الخطباء الأفذاذ المصاقعة كعب بن لؤى وكان قومى الأغراض ، إنسانى النزعة ، يحضّ على البر ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويعدّ فى الجاهلية لسان حال القوم وباقعتهم وزعيمهم ومقدمهم وإن يكن من كنانة ، ولما مات ذلك الخطيب القومى أكبروا موته وأرّخوا به .

وأشهرهم بعده قس بن ساعدة ، وكان واعظاً من نجران سمعه النبى صلى الله عليه وسلم قبل البعثة يخطب فى عكاظ على جمل أورق (أى رمادى) فعجب من حسن كلامه وأظهر من تصويبه وأثنى عليه (١).

ومن أشهرهم أيضاً فى الجاهلية أكثم بن صيفى وكان حكيما مصقعاً وحكَماً موفقاً ، رفيع المكانة فى قومه ومن أشرافهم وقلّ من جاراه من خطباء عصره فى معرفة الأنساب وضرب الأمثال والاهتداء لحل المشكلات والسداد فى الرأى .

---

(١) انظر خطبته التى خطبها فى سوق عكاظ فى صبح الأعشى صفحة ١٢ ، من الجزء الأول ، طبعة سنة ١٣٣١ هـ بالمطبعة الأميرية ، وفيها يقول « أيها الناس ، اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ماهو آت آت ... إن لله ديناً هو أرضى لكم وأفضل من دينكم الذى أنتم عليه ، إنكم لتأتون من الأمر منكراً ... الخ ».

كان فى خطبه قليل المجاز ، حسن الإيجاز ، حلو الألفاظ ، دقيق المعانى ، لا يلتزم السجع ، يميل الى الإقناع بالبرهان ويعتمد فى خطابته على قوة تأثيره وشدة عارضته لاعلى المبالغة والتهويل ، وكان فى خطبه يتجه اتجاها إنسانياً ، ومن أقواله فى هذا المعنى « إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعى ، من فسدت بطانته كان كالغاصّ بالماء ، شر الملوك من خافه البرئ، خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة » .

الخطابة فى العصور الإسلامية :

استدعت الدعوة إلى الإسلام وجود خطباء من أهلها لتأييدها ونشرها ، وفى المقابل كانت هناك ألسنة من أعدائها وخصومها للصد عنها وكان هذا وذاك بمخاطبة الجماعات فى المحافل والمنتديات والأسواق ومواسم الحج ومقدم الوفود إلى غير ذلك من المناسبات .

وكان العمل الأكبر فى الدعوة إلى الإسلام فى بادئ الأمر لصاحب الدعوة عليه الصلاة والسلام ، كما أن دعاته ورسله إلى الملوك وأمراء جيشه وسراياه ثم خلفاءه من بعد وعمالهم كانوا كلهم من الخطباء .

وعندما حدثت الفتنة بين المسلمين بعد مقتل عثمان وافترقوا إلى عراقيين بزعامة على وشاميين بزعامة معاوية ، ولكل منهم دعوة

يؤيدها ، ظهر من كلتا الطائفتين خطباء لايحصى عددهم على رأسهم على بن أبى طالب زعيم العراقيين ومعاوية بن أبى سفيان زعيم الشاميين .

وقد امتازت الخطابة فى صدر الإسلام عنها فى الجاهلية بأمور عدة ، منها سلوكها طريقاً دينياً كما فى خطب الجمع والعيدين والحج والإرشاد والتعليم ونحو ذلك مما يستدعيه نشر الدعوة الإسلامية ، ومنها أيضاً اتباعها خطة سياسية فى مثل تأليف الجماعات والأحزاب ، أضف إلى ذلك قوة تأثيرها فى النفوس وامتلاكها للوجدان وصفاء ألفاظها وسهولة عباراتها ومتانة أساليبها وتجنبها السجع وقلة الحكم القصيرة بمناسبة وغير مناسبة كما كان يفعل خطباء الجاهلية ، وأيضا بدؤها بحمد الله والثناء عليه واستمدادها من آيات القرآن والاستشهاد بأحاديث النبى عليه الصلاة والسلام .

وبالجملة فقد وصلت الخطابة فى عصر الخلفاء الراشدين وعصر بنى أمية إلى أرقى ما وصلت إليه فى غيرهما من العصور الإسلامية .

وقد حفل هذا العصر بالخطباء من الخلفاء الراشدين وغيرهم كسحبان بن وائل (ت ٥٤ هـ) الذى يضرب به المثل فى البلاغة والفصاحة والبيان ، وكان معاوية يعدّه لعظائم الأمور لقوة عارضته وسرعة خاطره وحضور بديهته ، وزياد بن أبيه أحد دهاة العرب

وساستها وخطبائها وقادتها (أنظر خطبة بليغة له حين قدم إلى البصرة فى صبح الأعشى) ، والحجاج بن يوسف الثقفى أحد جبابرة العرب وساستها وحكامها وبلغائها وخطبائها ، ومن خطبه خطبته المشهورة لما قدم أميراً على العراق وقد بدأها بقوله :

انا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع آلعمامة تعرفونى

ولما قامت الدولة العباسية فى المشرق والإدريسية فى المغرب والأموية الثانية فى الأندلس ، بقيت دواعى الخطابة متوافرة لتوافر أسبابها ، فكان بين قواد هذه الدول ودعاتها وخلفائها وولاتها ورؤساء وفودها خطباء بلغاء ، إلا أنه لما زاد اختلاط العرب بالأعاجم ضعف شأن الخطابة لضعف قدرة الموالى وعمال الولايات من الأعاجم عليها .

ولم يكد يمضى قرن ونصف على قيام تلك الدول حتى بطل شأن الخطابة السياسية إلا قليلاً فى المغرب ، وبقيت مقصورة على خطب الجمعة والعيدين والزواج والمواسم ونحو ذلك ، وحلَّ محلها فى الأمورالدينية مجالس الوعظ والتدريس فى المساجد والمدارس.

ومن أشهر خطباء الدولة العباسية الأولى داوود بن على أحد النابغين وأخطب القوم فى وقته ، وله خطبة عظيمة ألقاها بالكوفة يوم بيعة أبى العباس .

ومنهم أيضاً شبيب بن شيبة (ت ١٧٠ هـ) خطيب البصرة، وقد امتاز بنبالة النفس وسخاء اليد وحسن التواضع ونزاهة

اللسان ، كما امتاز بخطبه القصيرة البليغة فضلاً عن حلاوة ألفاظها ورشاقة أسلوبها وسهولة عباراتها ٠

وفى عصر الدول التركية لم تتغير الخطابة عما كانت عليه فى أواخر الدولة العباسية من حيث قصرها على خطب الجمع والأعياد إلا قليلاً من الخطب السياسية ٠

أما فى العصر الحديث فكان المصريون والسوريون فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين يستعملون الخطابة فى غير الأغراض الدينية ، ثم اتسعت الدائرة فى عصر الخديو إسماعيل، وصادف ذلك مجيىء جمال الدين الأفغانى إلى مصر فالتف حوله كثير من أبناء الأزهر وأدباء المصريين والسوريين فألف منهم أندية فكانوا ينتابون الخطابة فيها فى الأمور الدينية والسياسية ، وانتشرت الخطابة فى زمن توفيق وكان من أشهر الخطباء فى هذا الوقت الشيخ محمد عبده وعبد الله نديم وقد مر الكلام عليه ٠

الخطابة والمحاماة فى العصر الحديث :

المحاماة علم وصناعة وفن ٠

فهى علم من حيث أن لها أصولاً وفروعاً وقواعد ثابتة ، فأصولها الشرائع والقوانين الوضعية ، وفروعها مباحث العلماء وآراء الشراح وأحكام المحاكم ، وقواعدها الثابتة هى السنن التقليدية والأنظمة الشكلية الخاصة بها من حيث علاقتها بالحكومة

والقضاء .

والمحاماة صناعة من حيث هى عمل حيوى يمارسه صاحبه بعد أن يتأهب له تأهباً خاصاً ويعدّ له ما استطاع من علم ومعرفة وخبرة ، وهى ألصق الصناعات بالجمهور من جميع الطبقات وأشدّها تعلقاً بشئونهم الخاصة والعامة .

والمحاماة فنّ من حيث هى أفضل السبل وأشرفها لإظهار بلاغة الخطباء وسلامة الذوق وقوة الفكر ونضوج العقل وسعة العلم وغزارة المادة وبعد النظر وحذق الحيلة .

وقد وجدت صنعة المحاماة منذ بدأت الحقوق وظهرت سلطة يحتكم الناس إليها ، فتاريخ اليونان والرومان السياسى العام والخاص هو تاريخ خطبائهم وبلغائهم أمثال ديموستين وشيشرون ، وكان هؤلاء الخطباء جميعاً من رجال القانون ولا تزال خطبهم ومرافعاتهم ثابتة لدينا باللغات الأوروبية القديمة والحديثة تدل مع بعد الزمن وتطور الحوادث وتقلب الأحوال على وفرة العلم وطول الباع وسعة الحيلة وقد سبق أن تكلمنا على ذلك فيما مر من هذا الكتاب .

أما العرب فقد كان لهم فى جميع أطوار مدنيّتهم خطباء ومحامون لهم أخبار مطوّلة وخطب مسهبة فى كتب الأدب جُمع الكثير منها فى كتاب الأغانى والبيان والتبيين والعقد الفريد وصبح الأعشى وغيرها .

أما فى مصر الحديثة فقد ظهرت المحاماة بظهور مجالس القضاء ، وكان حقاً واجباً وفرضاً لازماً على عظماء المحامين أن ينبروا لتدوين مبحث كاف وافٍ عن تلك المهنة ليعرف الناس حقيقتها ويدركوا قدرها وكرامتها وجمالها وخلالها وإكرامها ومسئولياتها وعذوبتها ومرارتها وعزها وهمها وبالجملة كل ما له مساس بها . ولكن يظهر لنا أن عظماء المحامين تشغلهم أعمالهم عن النظر فى حقيقة تلك الصنعة بعكس حال المحامين فى بلاد الغرب ، فإن معظم فطاحلهم وفحولهم لا يفتأون ينشرون كتباً ورسائل عن صناعتهم فوق ما ينشر دائماً من المرافعات المطولة والموجزة .

والعلاقة بين المحاماة والخطابة علاقة وثيقة يقول الأستاذ ميشيل بوديه « إن المحامى يتكلم ويخطب ويدون مذكرات ، وفن الخطابة والكتابة هو لباب الأدب ، فكيف لا يكون المحامى أديباً وخطيباً ؟ » .

وقد انتهينا الآن فى هذا الكتاب إلى بعض ما أردنا من الكلام على الأسلوب فى الكتابة والخطابة .

محمد لطفى جمعه

١٠ يونيه سنة ١٩٤٤

« المراجع »

(١) البيان والتبيين للجاحظ .
(٢) نقد النثر لقدامة حسن جعفر البغدادى .
(٣) صبح الأعشى للقلقشندى .
(٤) بوفون ، التاريخ الطبيعى .
(٥) تين ، تاريخ الأدب الإنجليزى .
(٦) شوبنهاور ، العالم كإرادة وفكر .
(٧) بلوتارخ ، تاريخ العظماء .
(٨) ديموستين ، مجموعة خطبه .
(٩) نيزيت ، العبقرية والجنون .
(١٠) تاريخ أيرلندا الحديثة تأليف ديمولان الفرنسى .
(١١) تاريخ كتاب الخطابة لأرسطو ترجمة ابن رشد .
(١٢) مجلة الرسالة للزيات .

الفهرس

الصفحة

- ١ -

الأسلوب

-٢-

الخطابـــة

مؤلفات محمد لطفى جمعه

أولاً : المؤلفات المطبوعة :

العنوان	المطبعة	السنة
١ - فى بيوت الناس (قصص) - نفد .		١٩٠٤
٢ - فى وادى الهموم (رواية) - نفد .	مطبعة النيل	١٩٠٥
٣ - تحريرمصر(سياسة - مترجم) - نفد	مطبعة النيل	١٩٠٦
٤- محاضرات فى تاريخ المبادىء الاقتصادية والنظامات الأوروبية (اقتصاد ونظم الحكم) - نفد .	مطبعة النيل	١٩١١
٥ - الحكمة المشرقية (يضم ثلاثة كتب هى : حكم فتاح حوتب وروضة الورد للشيرازى والتعليم الراقى للمرأة اليابانية) - ترجمة ودراسة - نفد .		١٩١٢
٦ - حكم نابليون (مترجم) - نفد	مطبعة البيان	١٩١٢
٧ - ليالى الروح الحائر (أدب) - نفد	مكتبة التأليف	١٩١٢
٨ - الأمير « لميكافللى » (ترجمة ودراسة) - نفد .	مكتبة التأليف	١٩١٢
٩ - مقدمة قانون العقوبات ومبادىء العلوم الجنائية (قانون - مذكرات فى القانون الجنائى لطلاب السنة الثانية من قسم الحقوق بالجامعة المصرية) - نفد .		١٩١٧

العمل	الناشر	السنة
١٠ - تاريخ علم الاجتماع (اجتماع) - نفد .		١٩١٩
١١ - مائدة أفلاطون (دراسة فلسفية - مترجم) - نفد .		١٩٢٠
١٢ - الشهاب الراصد (نقد كتاب « فى الشعر الجاهلى » لطه حسين) - نفد .	مطبعة المقتطف والمقطم	١٩٢٦
١٣ - تاريخ فلاسفة الإسلام (فلسفة إسلامية) - طبعة أولى نفد .	مطبعة المعارف	١٩٢٧
طبعة ثانية	عالم الكتب	١٩٩٩
١٤ - الشيخ محمد عبد السلام (سيرة متصوف مصرى) - نفد	مطبعة حليم	١٩٢٧
١٥ - حياة الشرق ودوله وشعوبه وماضيه وحاضره (سياسة وتاريخ) - نفد .	دار إحياء الكتب العربية	١٩٣٢
١٦- سجل أشهر القضايا العالمية (قانون - عدد واحد) - نفد .	مطبعة حجازى	١٩٣٤
١٧ - بين الأسد الإفريقى والنمر الإيطالى (سياسة - بحث تاريخى اجتماعى فى المشكلة الحبشية - الإيطالية) - نفد .	مطبعة المعارف	١٩٣٥

سلسلة مسامرات الشعب (روايات مترجمة) :

١٨ – الساحر الخالد– عدد ٤٠ مسامرات الشعب – نفد

١٩ – الانتقام الهائل – عدد ٤١ مسامرات الشعب – نفد

– الكنز الدفين لكونان دويل – عدد ٤٧ مسامرات الشعب – نفد

٢١ – الجسد والروح – عدد ٤٨ مسامرات الشعب – نفد ٠

٢٢ – ثورة الإسلام وبطل الأنبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله (سيرة الرسول ﷺ– الجزء الأول) – نفد ٠ — مطبعة الحلبى ١٩٤٠

٢٣ – ثورة الإسلام وبطل الأنبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله (الجزء الأول مضافاً إليه باقى الأجزاء كاملة) – نفد — مطبعة النهضة المصرية ١٩٥٩

٢٤ – نظرات عصرية فى القرآن الكريم (تفسير) — مكتبة عالم الكتب بالقاهرة ١٩٩١

٢٥ – مخطوطات مسرحيات محمد لطفى

جمعه – الجزء الأول – المسرحيات المؤلفة (قلب المرأة – خضّرْ أرضك – فى سبيل الهوى – يقظة الضمير – الأم المتعبة) – إصدار ودراسة نقدية تحليلية للدكتور سيد على إسماعيل الأستاذ بكلية الدراسات العربية بجامعة المنيا .	مطبعة هلال بالمنيا الناشر مكتبة زهراء الشرق القاهرة	١٩٩٧
٢٦ – قطرة من مداد لأعلام المتعاصرين والأنداد – تراجم مصرية وأجنبية .	عالم الكتب بالقاهرة	١٩٩٨
٢٧ – نحو أدب روائى عالمى جديد ، عولس لجيمس جويس – (أدب ونقد)	عالم الكتب	١٩٩٨
٢٨ – مع الكتب ، فى سبيل المعرفة – تاريخ تكوين عقل (أدب ونقد)	عالم الكتب	١٩٩٩
٢٩ – الفلاكة والبوهيمية فى الأدب القديم والحديث (أدب)	عالم الكتب	١٩٩٩
٣٠– مباحث فى الفلولكلور (أدب ومأثورات شعبية) ، طبعة أولى .	عالم الكتب	١٩٩٩
طبعة ثانية ، سلسلة مكتبة الدراسات الشعبية ، رقم ٣٤ ، الهيئة العامة لقصور الثقافة .	يناير	١٩٩٩

٣١ - الأيام المبرورة فى البقاع المقدسة
(رحلة الحج والزيارة النبوية فى
عهد الملك عبد العزيز آل سعود)
(أدب رحلات) . عالم الكتب ١٩٩٩

٣٢ - تذكار الصبا أو ذكرى ١٩ مارس
(جزآن ، مذكرات وسيرة فى الرحلة
والسياسة والأدب والفنون) . عالم الكتب ١٩٩٩

٣٣ - الأسلوب والخطابة . عالم الكتب ١٩٩٩

ثانياً : مؤلفات تحت الطبع :

- بحوث إجتماعية فى بعض المشكلات والقضايا فى مصر المعاصرة .
- شاهد على العصر (مذكرات محمد لطفى جمعه ١٨٨٦ - ١٩٥٣) .
- عايدة (رواية).
- مختارة (رواية).
- الفتى العادل (رواية)
- حوار المفكرين ، رسائل أعلام العصر إلى محمد لطفى جمعه خلال نصف قرن (١٩٠٣ - ١٩٥٣).